

ألف ليلة وليلة

حسين جوهر   محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

٩

ألف ليلة وليلة

الجزء التاسع

الحصان المسحور

كتبه

حسين جوهر   محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف

رسـوم: الفنـانة النمـساوية سـتيلا يـونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء التاسع

صفحة



سيف الملوك وبديعة الجمال

(١)

كان من بين ملوك العَجَم قديمًا ملكٌ يحكمُ بلادَ خُراسانَ . وكان هـــذا الملكُ شجاعًا مِقْدامًا عادلًا كريمًا . له غَزَوات كثيرةٌ مجيدة على أعداء بلاده ، يُحرِز فيها نصرًا ، أو يَغْنَمُ من ورائها فتحًا ؛ وكان إلى جانب ذلك شاعرًا أديبًا ، يحبُّ الأشعارَ والأسمارَ والتاريخ والروايات ، ويقرِّب منه مُنْشديها وقائليها ، وكلَّ من يعرف شيئًا من سِيَرِ المتقدمين ، ويُغْدق عليهم الأموال ، ويهَبُ لهم الهباتِ ، ويُنْعِم عليهم النعمَ الجزيلة ، فيخرجون من لدنه مسرورين ، تَلْهَجُ ألسنتهم بالشكر له ، والثناء عليه .

وكان وزيرُ الملك لا يميل إلى هذا النوع من المسامرات ، ولا يُقِرُّ الملِكَ على بعثرة الأموال على كل من هَبَّ وَدَبَّ ؛ وَيَنْهَى الملك عن ذلك كثيرًا ، وبشتى الوسائل .

فحدث يومًا أن جاء إلى باب الملك تاجرٌ شهير ، اسمُهُ حَسَن . وكان هذا التاجرُ إلى جانب تجارته وثرائه — عالمًا فاضلا ، يحبُّ العلمَ والأدبَ ، ويميلُ إلى معرفةِ كلِّ جديد ، والبحث عن كل غريب . وكان بِحُكم أسفاره الكثيرة ، وتجَوُّلاته وراء تجارته بينَ الأقطارِ والأمصارِ عالمًا بطبائع الناس وعاداتهم ، ولا تَفْرُغُ جَعْبَته من القصص ، وكان بحرًا لا يَنْضُب مَعينُه من الأخبار والأسمار .

فلما وصل إليه شَوْقُ الملك إلى سَماع كل عجيب ، والإنصات إلى كل غريب — قرر أن يذهب إليه ليقصَّ عليه بعضَ ما صادفه من العجائب ، وما لاقاه من الغرائب . لا بُغْيَةَ له من وراء ذلك فى مِنْحَة ، ولا مَطْمَعَ له فى هِبة ؛ فقد كان هو أيضًا جوادًا كريمًا يَمْنَح المِنَح ، ويهَبُ الهباتِ ، ويُغْدِقُ على المساكين .

فلما أتى هـذا التاجرُ إلى باب الملك يطلب المثولَ بين يديه — قال الوزير للملك ، وهو لا يستطيع إخفاء سخطه وحَنَقه :

إلى متى يا ملكَ الزمانْ ؛ وأنت تقرب منكَ هؤلاء الطامعين فى مالك ؟! فهذا أحدهم بالباب يَبْغى المثولَ بين يديك ، ليقصَّ عليك بعض الأقاصيص المعادة ، والأحاديث المنقولة ، ليعود بعد ذلك بِنْعَم

من مال . فقال الملك :

يا وزيرى ، أنت تعلم أنى لا أشجّع إلا كلّ من قال قولًا جيّدًا ، أو أتى بطريف جديد . فمن هو الذى بالباب ؟

قال الوزير :

هو تاجر اسمه حَسَن ، وما أظنه يحمل طريفًا ، أو يعلم جديدًا .

قال الملك :

دعْه يدخل حتى نرى ما أتى به ، ونحكم عليه .

قال الوزير :

بل اطلب منه أن يقصّ عليكَ قصةَ سَيْف الملوك وبَديعةِ الجمال ؛ فإن لم يعرفها فلا تسمع إليه ، ولا جزاء له عندك .

قال الملك :

وما هى قصةُ سيفِ الملوك وبديعةِ الجمال ؟

قال الوزير :

هى قصةُ أميرٍ من الأمراء ، حدَثت حوادثها فى الأزمانِ الغابرةِ أيامَ حكمِ الملك سليمانَ بنِ داودَ عليه السلام . تقصُّ ما لاقى ذلك الأميرُ من الأهْوَال ، وما صادَفَ من المِحَن فى سبيلِ هوَى بِنْتٍ من بَنَاتِ الجان .

فقالَ الملك وهو يبتسِم :

طِبْ نفسًا ؛ سأطلُب من التاجر ذلك ؛ فقَدْ صِرتُ وبى شَوقٌ إلى سماعِ هذه القِصّة ، فَدَعْه يَدْخل .

فلما مَثَلَ التاجرُ حسن بين يَدَى الملك . قال الملك :

أيها التاجرُ ؛ لقد مَلَلْتُ سماعَ حوادثِ الأسْفار ، وأريد أن تَقصَّ عَلَىَّ قصة سيفِ الملوكِ مع بَدِيعةِ الجمالِ ، وما لاقاه فى سبيلها .

فقال التاجرُ وهوَ يُظهِر الأسَف :

ولكن . . . ! يا مَلكَ الزمان ؛ أنا لا أَعرِفُ هذه القِصَّـةَ ، وما سَمِعتُ بها .

فقالَ الملكُ فى إصرار :

ولكنَّنى لا أُريدُ سماعَ شىءٍ غيرِ هذه القِصَّة .

قال التاجرُ :

يا مَلكَ الزمان ، سَوفَ أَسْأَل لكَ إخوانى التُّجَّار عنها ، فَلعَلَّ أحَدَهم يعْرِفها ، أوْ سَمِعَ بِمَنْ يعْرِفها .

قال الملك :

بل أُريدُ ذلك وَعْدًا منك ، ترتَبط به ، فإنْ جئت بالقصة خَلعْتُ عليك ، وأَقطعْتُكَ أرْضًا ، وَأوْلَيْتكَ ولاية ، وإنْ لم تَأتِ بها نَقَمْتُ عليكَ ، وجَرَّدْتك مِمَّا عندِك ، وقد أَمْهلْتُكَ لإنجازِ ذلك سنة .

فَلم يجد التـاجرُ بُدًّا من الامْتِثال لحكْمِ الملكِ والنُّزُولِ على رأيه ، وقال :

لكَمُ علىَّ ذلك يا مولاى .

وانصرفَ التاجرُ حَسَن من فوره إلى منزله ، وقد اشْتَدَّ به القَلق ،

وتناهبَتْهُ الأفكارُ فيما طلب مِنهُ الملك ، وفيما وَعدَهُ به .

وكان للتاجرِ حسَن خَدمٌ وحَشمٌ ومَوَالٍ وأتباع ، يُحبُّونَه ويجلُّونَه لِرَحمتهِ وجودِه ، فلما لاحَظوا ما بِهِ منْ شُهومٍ ووُجُومٍ ، حتى التفُّوا حَوْلَهُ يسألونَه عمّا أَلمَّ به ، ويَستفهمونَه عن حاله ، فأخْبَرَهم بحقيقةِ الأمر ، فقالوا جميعاً :

يا سيِّدنا ؛ لا تقلقْ ، ولا تحزنْ ، ولا تبْتَئسْ ؛ فنحنُ جميعاً في خدمَتِكَ وسَنَطوف لكَ في البلاد نسألُ ونَستقصِي ، ولا نعودُ إنْ شاء الله إلا وقد أتيْنا لكَ بما تطلب .

فسُرَّ التاجرُ حَسَنٌ لهذا الرأي ، وانشرحَ صدرُه ، وطابَ خاطرُه . فتَخيّر خمسةً من مماليكه يتوسَّم فيهم الذكاء والنباهَةَ ، ويَعْهَد فيهم الدِّراية واللَّباقة .

وقال لهم :

سأبعثُ بكل واحدٍ منكم إلى أحدِ البلاد ، واجعلوا همَّكُم أنكم تَسْتقصُونَ عن العُلماء والأُدباء وأصحاب الحكايات ، وتسألون عن قِصَّة سَيْف الملوكِ وبَدِيعةِ الجمال . ومَنْ وجَدَها منكُم لا يضنُّ في سبيلِ الحصولِ عليها من صاحبها بأيِّ ثمن .

فقالوا :

سمعاً وطاعةً يا سيِّدنا ، نحنُ جميعًا في خِدْمَتك .

وما مرّتْ بعد ذلك بِضْعة أيام حتى كان التاجرُ حَسَنٌ قد جهَّز

مَواليه بِكلِّ ما يحتاجون إليهِ فى سَفرهم ، من زادٍ ومَتاع ، وأَعَدَّ لهم ما يَلزمهم من المـال ، وَوَجَّه كلاً منهم إلى جهة عَيَّنها له ، بعد أنْ زوَّدَهم بالنصائح ، ووعَدَهم حُسْن الجزاء .

وسارَ الرُّسُل كلٌّ إلى وجْهتِهِ : فذهَبَ أَحَدُهُم إلى الهنْد والسِّنْد ، وذهَبَ الثانى إلى الحجاز واليمن ؛ أما الثلاثةُ الآخرون فكانت وجهتهم بغداد والشام والمغرب .

وطالت بهم الغَيْبة ، ثمَّ ابتَدَءوا يعودُون إلى سَيِّدهم واحدًا بعدَ الآخر لا يحملونَ لهُ إلا خَيْبةَ الأَمَل ، ومَيِّت الرجاء ، ولم يَبْقَ منهمْ غَيرَ رسولٍ واحد ، وكان هو الرَّسُول الذى تَوَجَّه إلى بلاد الشام . وظلَّ التاجرُ ينتَظرُه بأَملٍ واهٍ ضعيفٍ زادَه ضعفاً خَيبة الأمل فى زُملائه الأربعة الذين عادُوا قَبله .

وكان هذا الرسُول قد جابَ الأقطار الشامية وراءَ بُغيَتِه حتى استقرَّ بمدينةِ دِمشق ، ولمـا كانتْ دمشق مدينةً فيحاء ، فيها ظِلٌ وماء ، وأنهارٌ وأطيارٌ وأشجارٌ ، فقد طابَ للرجل الإقامةُ بها بعض الوَقتِ .

وبينما هو ذَاتَ يوم يجوسُ طُرُقاتِها أَبصَرَ جماعةً من الرِّجال يُهرولِون مُسرعين فى السَّير ، فسألهم عن شأنهم ، وعن سرِّ إسراعهم .

فقالوا :

إنا نقصِدُ إلى راويةٍ فاضِل يقُصُّ على الناسِ القصص العَجيبة ، ويحكى الأحاديث الممتعة ، تتَخَللها الحِكَمُ البليغةُ . وهـذا الوَقتُ هو ميعادُ

جلستِهِ ، ونحنُ نُسرعُ ، حتى نكونَ قريبينَ من مجلِسِه ، فى الصفوفِ الأولى .

فقال المَمْلُوكُ ، وهو يُهرولِ معهم :

خُذُونى معكُمُ ، فربما كانَ عِند هذا الرجُل بُغيَتى .

وانتظمتْ حلقةُ المُستمعين حولَ شيخٍ وَقورٍ مُسنٍّ ، كلُّهم عيونٌ شَاخِصَةٌ ، وآذانٌ مُنصتَةٌ ، يستَوْعِبونَ حديثه بين الاستحسان والعجب ، حتى غربَتِ الشمسُ واختفتْ وراء الأُفق ، فاختَتَمَ الشيخُ حديثَهُ الممتع ، واعِدًا بِالْعَوْدَةِ جماعَةَ الذين كانوا لا يريدون أن يُفارقوا مجلسهم ليَسْتمرُّوا فى الاسْتماعِ إليهِ .

ولما تفرق الجمعُ وذهب كلٌّ إلى شأنه . تقدَّم رسُولُ التاجر حَسَن من الشيخ وألقى عليه السَّلام ، فردَّ عليه الشيخ تحيَّتَهُ بأحْسَن منها ، ثمَّ قال الرسُولُ :

يا سيِّدى الشيخ ؛ إنى أُريدُ أن أسألك سُؤالًا :

فقال الشيخ :

اسأل يا ولدى ما تشاء .

قال :

هل تعرفُ يا سيِّدى قصة سَيف الملوك وبديعة الجمال ؟

فتمهَّل الشيخُ فى الردِّ قليلًا ثم قال : ومن الذى أعلمك أن لسيفِ الملوكِ وبديعة الجمال قصةً يا بُنىَّ ؟ !

قال المملوك :

لم يُعلِمْنى بها أحدٌ هُنا ، وإنما أنا جئتُ وراءها من بلادٍ بعيدة ، فإنْ كانتْ عندك يا سيِّدى فلا تَضِنَّ عَلَىَّ بها ، وسأبذلُ لك فى ثمنها كلَّ ما تطلبُ من مرتخصٍ وغال .

فقال له الشيخُ بعد تردُّد :

تعالَ غدًا إلى منزلى لِنُتمَّ فيه هذا الحديث .

ثم انصرفَ الشيخُ بعد أن وصفَ للمَمْلُوك الطريق إلى منزله .

وبكَّر المملوكُ فى الذهابِ إلى منزل الشيخ بعد أن أعدَّ له كيساً مملوءاً بالمالِ ، وهو لا تكادُ الدُّنيا تسعُهُ من فَرْط فرحَته ، فقد أيقنَ أن الشيخ لا بُدَّ يعرفُ هذه القصَّة التى تحمَّل فى سَبيلها من أجل سيِّدهِ التَّعبَ والمشاقَّ .

فلما وَصلَ إلى الشيخ أعطاهُ كيسَ المالِ ؛ فطلبَ منه الشيخُ أنْ يقُصَّ عليه قصتَهُ ، فقَصَّها عليه المملوك كما هى . عندئذٍ قام الشيخُ فأخذه من يده ، ودخلَ به إلى قاعةٍ صُفَّتْ على جوانبها كتبٌ ومخطوطاتٌ قديمةٌ وحديثة ، وأخرجَ لهُ من بينها كتاباً قَديماً ، وأحضَرَ لهُ قلماً وقِرْطاساً ، وقال له :

اجْلس هُنا يا ولدى ، واكتُبْ من هذا الكتابِ قصةَ سيفِ الملوك وبديعة الجمال ، ولكنى أشترطُ عليك ألَّا تقرأ هذه القصة إلَّا على الملوكِ والفُضَلاء ، وذَوى الرأى .

فقال المملوك :

سمعًا وطاعةً .

ثم جلس يكتب ، فلما انتهى قرأها على الشيخ ، فصحّح له ما بها من أخطاء ، ثم ودَّعَ الشيخ وانصرفَ ، وسافرَ من فوْره قاصدًا بلاده .

وما وَطِئتْ قدماهُ أرض وطنه ، حتى قصدَ مُسرعًا إلى بيتِ سيِّده التاجر .

وكان التاجرُ فى ذلك الوقت جالسًا حزينًا يرزَحُ تحت حِمْلٍ ثقيل من الهَمِّ ، ويَتململُ من شِدَّةِ القلق ، تَنوشُه الأفكار ، وتَلفُّه الحسرات ، لِمَا سَيَئول إليه أمره . فقد مرّت السنة التى أمْهله الملكُ إيَّاها فى سبيل الحصول على قصّة سيفِ الملوك وبديعة الجمال ، ولم يبْقَ على تمامها غيرُ بضعةِ أيام تُعَدُّ على الأصابع وهو لم يعثر على القِصَّة، وها هُم أولاء أربعةٌ من رُسُله الذينَ أرسَلهم للبحث عنها وقد عادُوا خائبين . أما الخامس الذى لم يعُد فقد انقطعَ من نفْسِه الأمل فى عَودته قبل حلول الميعاد .

فبينما هو جالسٌ على تلك الحال إذْ بخادمٍ له يدخُل عليه مُهَرْوِلًا يُنْبئهُ بعودَة الرسُول الخامس .

واستقبلَ الرجُل رسُوله بقلبٍ واجفٍ ، يُنعشهُ بصيصٌ من الأمل ، وتردُّهُ الحسْرَةُ والخوفُ لفشلِ سابقيه ، وما إنْ دخل الرسولُ عليه حتى فَتحَ فيه نصف عين قلقًا ، ولكنه ما لبثَ أن اطْمأن قلبه ، وسكن روعُه ، فقد قرأ فى عيْنَي الرسول مابعث فى نفسه الأمل ، ودفع إلى قلبه بِالسرور.

وأخرج المملوكُ من صدره الأوراق التى دوّن فيها قصة سيف الملوك وبديعة الجمال ، وأعطاها سيِّده وهو يقول :

هاك يا سيِّدى القصةَ التى طلبتُها ، وقد حصلت عليها بعد تعبٍ ومشقةٍ ، وإنها لقصة رائعة غريبة ، تستحقُّ ما بذل فى سبيلها .

فتناولها التاجرُ بلهفةٍ كلَهفَةِ الظّمآن فى حرِّ الهجير إلى جرعةٍ من الماء ، أو لَهفةِ الغريق إلى عُودٍ من القشّ يتعلق به يرجو النّجَاة ، وأكبّ على قراءتها وتَصَفحها ، وهو كلما أمعن فى القِراءة ازداد عجبًا ، وانتشى فرحًا .

فلما أتى على آخرها دفعَ إلى مملوكه عَينين تفيضان بالشُّكر والثّناء ؛ وقالَ له :

أنت من الآن حرٌّ طليقٌ ، فقدْ أعتقْتك ، وسأَهبُ لك ما تَهنأ به مُدة حياتك .

وشرع التاجرُ حَسَن من فَوْزه فى نسخ القصةِ وتنْميقها من جديد . ثم حملها ، وذهب إلى قصر الملك .

فلما مَثلَ فى حضرة الملك ، وكان جالسًا يُحيط به وُزَراؤُه ، وكبار رجال دوْلته قال التاجرُ حسن :

يا مولاى ، هذه هى قصة سيف الملوك وبديعة الجمال التى طَلبتُموها مِنّى وَوَعَدْتكم بإحضارِها .

فأجاب الملك :

حَسناً ! ! إذن اجْلس وقصّها علينا ، حتى نُكافئك بما وعَدْناك به . .

فاتّخذَ الرجُل مجلسًا قريبًا من مجلس الملك . وشرعَ يقُصُّ عليه وعلى جُلسائه قصة سيف الملوك و بديعة الجمال .

فقال :

(٢)

فى الأزمانِ الغابرةِ القديمةِ المتوَغّلة فى القِدَم ، كان يحكمُ مصرَ ملكٌ اسمهُ عاصمُ بن صفوان ، وكان هـذا الملِكُ جوَادًا سخيًّا ، ذا هيْبةٍ ووقارٍ وكانَ له جيشٌ مدرَّب ، كاملُ العُدّةِ والعدَد . وقد حصَّن بلادهُ تحصيناً منيعاً ، وشيَّد بداخلِها ، وعلى تخومِها ، وحولْ مُدُنها — القِلاع والحصونَ لصَدّ غزواتِ الأعداء عنها .

وكانَ لهذا الملكِ وزيرٌ مخلصٌ ، اسمهُ فارسُ بن صالح ؛ وكان فارسٌ وزيرا لأبى عاصم ، ولما ملكَ عاصمٌ استَوْزرهُ أيضاً ؛ وكانت ديانةُ الملكِ والوزير ، وأهلِ بلدهما تدعو إلى عبادَةِ الشمسِ والنار .

وكبرَ الملِكُ وهرِم ، وانتابته أسقامُ الشيْخوخةِ ، دون أن يُعقِبَ ولداً يخْلفُهُ على عَرشِه العريضِ ؛ فكانَ لهذا السببِ فريسةَ الحزْن والغَمّ ، بادىَ القلقِ والهمّ ، شاردَ الذّهنِ ، دائم الوُجُوم .

وذاتَ يومٍ كان يتصدَّرُ مجلِسَهُ بين الكبراء والأمراء للحكمْ بين

الناس ، فراودتهُ هذه الأفكارُ العابسةُ ، وألحّتْ عليه بشدّة ، وكان كلما أرادَ أن يشغلَ نفسهُ عنها بالنظر إلى ما بينَ يديه من مشاغلَ وأعمال — عاودتْه أشدَّ وأعنفَ عن ذى قبل ، حتى لم يملك أن ذرفَتْ عيناهُ الدمع حسرةً وحُزْنًا .

ولاحظَ عليه وزيرهُ المخلصُ فارسُ بن صالح وكان يجلسُ عن يمينه ؛ ففضّ المجلسَ سريعاً ، ثم اختلى بالملكِ وقال له :

يا ملكَ الزمان ؟ ما الذى دعاكَ إلى البكاء وذرْفِ الدُّموع ؟ !

لم يستطع الملكُ أن يكبحَ نفسهُ ، أو يسيطرَ على أعصابه ، فانفجرَ مُجهشًا باكياً ، فلما رأى الوزيرُ هذا الأمرَ من الملكِ لم يُصدِّق عينيه وقالَ مُرْتاعاً :

أخبرْنى يا ملكَ الزمانِ بما ألمَّ بكَ ، فأنا طوْعُ بنانكَ وتحتَ إشارتِك.

فلم يزِد الملكُ على أن زادَ نشيجاً ونُوَاحاً . فتحيَّرَ الوزيرُ فى أمرِ الملكِ وقال له : يا ملكَ الزَّمانِ ؛ إننى وزيرُكَ ، ووزيرُ أبيكَ من قبلك . أفتديكَ بروحى لو كان إلى ذلك سبيل : فأخبرنى ما هو خطبُك ؟ ! فأنا ما علمتُ أن شيئاً جديدًا قد حلَّ بك ، أو حلَّ ببلادنا : فالأمْنُ شاملٌ ، والعيشُ رغْد ، والشَّعبُ راضٍ ، ولعلَّ هُنالكَ أمرًا خطيرًا لا أعرفه ، وإذا كان الأمرُ كذلك فأخبرنى عن الذى رَوَّعَك فسلبَ نفسكَ من بين جنبيكَ ، أو عن الذى يريدُ غزْوكَ فأسيرَ إليه وأهدم بلادهُ فوقَ رأسه ، وأحرقَها عليه ، وأتركها قاعاً صفصفاً .

ونظر الوزيرُ إلى الملكِ ، فلما رآهُ لا يجيبُ ولا يكفُّ عن البكاء — أخرجَ سيفَهُ من غِمْده وقالَ للملكِ :

يا مولاى ؛ بما أنك لا تريدُ أن تُطلِعنى على سرِّك ، فقد صرْتُ غيرَ أهلٍ لثقتكَ ، وسأُغمدُ من فورى هـذا السيفَ فى قلبى ، لأنَّ من يفقدُ ثقةَ مَلِكِه لا يستحقُّ أن يعيش .

قال هـذا ، ورفعَ السيفَ بيدهِ يريدُ أن يُغمِدَهُ فى صدْرهِ . حينئذٍ رفعَ الملكُ رأسَهُ وصاحَ عليه من بين دموعهِ بصوتٍ متهدِّج غيرِ متصلِ النبراتِ .

يا وزيرى المخلص الأمين ؛ أنا ما بكيتُ على شيء مما ذكرتَ ، ولكنى بكيتُ على مصابى الذى تعرفهُ ، وهو عدمُ إنجابى لولدٍ يحملُ اسمى ، ويخلِّدُ ذكرى ، وإنه ليؤلمنى أنى لم أستطع ضبطَ شعورى ، وتمالكَ أعصابى ، وسترْ شُجونى . فتراختْ يدُ الوزيرِ بالسيفِ ، وأقبلَ على الملكِ ، وجثا بين يديهِ وقال له مواسياً :

يا ملكَ الزَّمانِ ؛ ها أنا أكبرُ منكَ سِناً ولم أُنجِبْ ولدًا ، ولم أبتئسْ ولم أحزن ، فأنا راضٍ بما قُسِمَ لى ؛ أما وقد هالكَ هـذا الأمرُ وأفزعكَ فلا تَبْتَئِسْ ، وسأضرب فى الأرضِ حتى أعرفَ سببَ ذلك ؛ وآتيَكَ بدواءٍ شافٍ .

فقالَ الملكُ وهو يهزُّ رأسهُ يائساً :

إن بلادنا مملوءةٌ بالأطباء والحكماء ، وهى أيضًا مسعى أهلِ العلمِ

والمعرفةِ من البلاد الأخرى ومحطُّ رحالهم ، فعلامَ سعيُك ؟!

فأجابَ الوزيرُ :

لقد سمعتُ بخبر رجلٍ يُسَمى سليمانَ بنَ داودَ ، وأن هـذا الرجلَ له ربٌّ عظيمٌ قادر على كلِّ شيء . فسأذهبُ إليه وأسألهُ حاجتنا .

فقال الملك :

افعل ما ترى .

ولم يستغرقِ الوزيرُ فى إعدادِ نفسهَ وإعداد رجاله للسفرِ وقتًا طويلاً ، فقد حزَمَ أمرهُ سريعًا لما انتواهَ ، وسارَ فى رحلةٍ إلى سليمان بن داود عليهما السلام ومعه له هديةٌ عظيمةٌ .

(٣)

فلما شارفَ الوزيرُ فارس ورجالهُ أرضَ تدْمُر ، مقر الحكيم سليمان . وجدَ فى استقباله رجلًا مَهيبًا ، تحيطُ به حاشيةٌ وأتباع ، خفُّوا جميعًا للترحيبِ به والسلامِ عليه ، فسألهم الوزيرُ وقد تملكتْهُ الدَّهْشة :

من أنتم ! ؟ ومن تقصدونه باستقبالكم ؟!

فقال كبيرهم :

إننا من أتباع سليمان بن داودَ عليهما السلام ، وأنا وزيرُه آصفُ ابنُ بَرَخيا ونحنُ آتون لاستقبال الوزيرِ فارسِ بن صالح وزير الملكِ عاصم ابن صفوان .

فازدادت دهشةُ الوزيرِ فارس ، واشتدّ عجبُه من هـذا القول ؛ وقال :

ومن أعلمكم بمجيئنا ؟ !

أجابَ الوزيرُ الآخر .

أعلمَنا سيّدُنا سليمانُ بن داود .

فقال فارس :

ومن أعلمَ سليمانَ بن داود ؟ !

قال الوزيرُ :

علمُ ذلك عندَ ربي .

قال فارس :

ومن هو ربك ؟ !

فقال الوزيرُ آصف ، وقد دُهش هو الآخرُ من هذا القول :

ربي الذى نعبُد — خالقُ السموات والأرضِ وما بينهما ، وإلهُ الخلقِ أجمعين وأنتم اما الذى تعبدُون ؟ !

أجابَ فارس :

إننا وقومنا نعبدُ الشمس ونسجُد لها .

فقال الوزيرُ آصف مُستنكرًا :

أيُها الوزير ؛ إن الشمس ما هى إلا كوكبٌ من الكواكب التى خلقها الله سبحانه وتعالى — وحاشا أن تكونَ ربًا . إن الشمسَ تظهر وتغيبُ ، والله حاضرٌ لا يغيبُ ، إن اللهَ خالقها وخالقنا ، وخالقُ كلّ شىء وَهوعلى كل شىء قدير .

فقال الوزيرُ فارس وقد دخلتْ إلى قلبه الرهبةُ والخشوع :

حقًا ! ما هذا إلا إله عظيم !

واستصحبَ الوزيرُ آصِف الوافدين حتى دخلوا جميعاً إلى مدينة سليمانَ عليه السلام .

ولكن الوزيرَ فارساً ورفاقه ما كادتْ أقدامُهم تطأُ أرضَ المدينةِ حتى وقفوا جميعاً كأنما أقدامُهم قد تسمَّرَتْ بالأرضِ !

كانَ أمامَهُمْ منظر دعاهم إلى أن يقفوا بأماكنهم مبْهُوتين مدهوشين ، خائفين وجلين ، لا يجسرُون على أن يتبعوا قائديهم ، ولا أن يواصلوا سيرهم إلى داخل المدينة !

كانَ إلى جانبي الطَّريق صُفوفٌ متراصَّةٌ من الحيواناتِ المختلفةِ الأليفةِ والمتوحشةِ منها : الغِزلانُ والخيلُ والإبلُ والفيلةُ ، ومنها : الأسودُ والنمورُ والفهُودُ والدِّببَةُ . يقفُ بعضها إلى جانبِ بعض فى هُدوء وسكون ، وإلى جانبها صفوف أخرى من جنودٍ ذوى خِلَقٍ بَشِعة عجيبةٍ مُنَفِّرةٍ ، يقفون بجانبِ جنودٍ ذوى خِلق عاديةٍ . وفوق رءوسِ هؤلاء جميعاً طيورٌ كبيرةٌ وصغيرةٌ قد حلَّقتْ فى جوِّ المكان فظلَّلتْهُ بأجنحتِها وطبَّتِ الهواء برفرفتها .

ورأى الوزيرُ آصف ما عليه الوزير فارسٌ وجماعتُه من الخوْفِ والرُّعْبِ والفزَعِ فقالَ لهم يطمْئِنهم باسمًا :

لا تخافوا ؛ تقدَّمُوا وسيرُوا على بركةِ الله ؛ فهؤلاء الذين ترون من

الإنس والجنُّ والحيواناتِ والطُّيور هم من رعايا الملك سليمانَ بنِ داودَ ؛ فلا خوفَ منهم ولا خشيَةَ ، ولن يُصيبَكم منهم أيُّ ضرر . بل هم يقفون تحيةً لكم وترحيباً بكم .

وَتشجَّع فارسٌ ومن معهُ فتقدَّمُوا يسيرُون خلفَ الوزيرِ آصف وَسْط صفوفِ الحيواناتِ المستأنِسَة والمتوحِّشة وصفوفِ الجنودِ من الإنْسِ والجنِّ الذينَ جاءوا لتحيَّتِهم ، حتى انتهوا إلى دارٍ جميلةٍ مُزيَّنة فدعاهم آصف إلى دخولها والاستراحةِ فيها .

ودخل فارس وجماعتهُ إلى دار الضِّيافةِ التى أُعِدَّتْ لهم فوجدوها داراً فخمة قد فرشتْ بفاخرِ الرِّياش ، وزُوِّدتْ بكافَّةِ وسائلِ الرَّاحة .

وأتاهم الخدمُ بالماء المعطَّر فاغتسلوا وأزالوا عن أجسامهم غُبارَ السَّفر ، ثم أتوْهم بما لذَّ وطابَ من الطّعامِ فأكلوا حتى شبعُوا ، ثم قامُوا إلى أسِرَّتهم التى أُعِدَّتْ لِنوْمِهم فناموا وهم مسرورون معْجَبُون بحفاوةِ هؤلاء القوم .

ومرَّ عليهم فى ذلك ثلاثةُ أيامٍ ، ثم أتاهم آصف بن برَخْيا فقال لهم : هيَّا لمُقابلةِ الملكِ سُليمانَ .

فغادر فارسٌ وجماعتُه دارَ الضيافة ، وقد حملوا معهم الهدايا التى أتوا بها معهم للملكِ سليمانَ ، وَسارُوا يتبَعون الوزير آصف حتى دخلَ بهم إلى عرشِ سليمان .

وكان سليمانُ جالِسًا على كرسيِّه ، وعلى جانبيْه نفر من رجالهِ ، فلما

دخلَ عليه فارس ورجالهُ أرادُوا أن يَسْجُدوا له ويقبّلوا الأرْضَ بين يديْهِ ، فمنعهُمْ من ذلك سليمان وقال لهم :

لا ينبغى أن يَسْجد إنسانٌ عَلَى الأرض إلّا لله عز وجلّ ، اجْلسوا فاستريحُوا واذكروا حاجتكم .

وجلسَ الضيوفُ وهم يشكُرون للملكِ سليمانَ حفاوَتَه بهم وإكرامَه لهم ، ونظرَ سُليمانُ إلى فارسٍ يَنتظرُ أن يُبيِّنَ له حاجتَه ، ولكنَّ فارساً أطرقَ برأسِه إلى الأرضِ متردِّدًا ، فلما رأى سليمانُ تردّدَه قال له :

أيها الوزيرُ ؛ لِمَ لا تُفصحُ بما جئتَ من أجْلِه ؟ إنَّ حاجتَك وحاجةَ مليكِك مَقضيَّةٌ بإذن الله .

قالَ الوزيرُ فارس ، وهو فى دَهْشةٍ مما قال الملكُ سليمان :

وهلْ سيِّدى سليمانُ على عِلمٍ بحاجتى وحاجةِ مَليكى ؟ !

فابتَسم سليمانُ وقال :

نَعم ! أنا على عِلمٍ بها ! وسأُخبرُك بمضمونِها ما دُمتَ أنتَ مُتردِّدًا فى التصريحِ بها .

وأخْبرَ الملكُ سليمانُ الوزيرَ فارساً بما جاء من أجْله ، وبما كان قد دار بين الوزيرِ فارسٍ والملكِ صَفوانَ من حديث .

وأنصتَ فارسٌ لكلامِ سُليمانَ فى دهْشةٍ عميقةٍ وذهولٍ شديدٍ ؟ فلما سمعهُ يسألُه :

أليسَ ما أخبرْتُكَ به أيها الوزيرُ بصحيح ؟ ! !

قال :

أيها الملكُ ؛ إنّ ما قُلتَه حقٌ وصِدْق ، ولكنه لا يَعلمُ به إلا أنا والملكُ صَفوانُ ، فمَن أَعْلمكَ به يا مولاى ؟!

قال سُليمان :

أَعْلَمَنى اللهُ ، ربِّى الذى لا تخفَى عليه خافيةٌ ، والذى يَعلمُ بمـا تُخفِى الصُّدورُ .

حينئذٍ قال الوزيرُ فارس وقد امتلأتْ نفسُه إيمانًا ورَهْبةً وروْعةً :

يا نبيَّ الله ؛ ما ربُّك هذا إلا ربٌّ كريمٌ عظيمٌ قادرٌ على كلِّ شيءٍ ، وقد آمنتُ به منذُ الآن .

وحذا رِفاقُ فارسٍ حَذوَه ، فآمَنوا بالله على يَدَىِ النبيِّ سُليمان .

وسُرَّ سُليمان بما كانَ من إيمانِ الوزيرِ فارسٍ ورِفاقِهِ بالله ، وحَمِد لهم ذلك وباركَه عليهم . ثم قال لهم :

يا رِفاق ؛ إنى أعلمُ أيضاً أنكم قد حَمَلتم لى معكم من بلادِكم أحمالاً وهَدايا هى كَذا . . وكَذا .

ثم عدَّد لهم أصنافَ الهدايا وأنواعَها التى كانوا قد أَتَوْا بها معهم ، وكانت لا تزالُ محفوظةً بأحمالِهم لم تمسَّها يَد . ثم قال :

وأنا قد قَبلتُ منك كلَّ هذه الهدايا ، ثم عُدتُ فوهبتُها لكم فتصرَّفوا فيها كما تشاءون . والآن اذهبوا فاستريحوا بدار ضِيافتِكم ، وغدًا ائتنى أيها الوزيرُ فارسُ لأُعلِمَك بقضاءِ حاجتِك إن شاء اللهُ .

فانصرفَ فارسٌ ورِفاقُه من حضرةِ النبيِّ سُليمانَ وألسنتُهم تَلهَجُ له بالدُّعاءِ والشُّكرِ .

فلما كانَ اليومُ الثانى أَتَى فارسٌ إلى حضرةِ الملكِ سُليمانَ ، فرحَّبَ به هذا وأكرَمهُ ثم قال له :

أيها الوزيرُ ؛ إنَّ ما جئتنى من أَجْلِه سيُقضَى لك وللملكِ صَفوانَ بإذنِ اللهِ إذا اتبعتما ما سأُرشدُكَ إليه الآنَ .

فقال فارسٌ

وقد استبشرَ بقولِ سُليمانَ :

يا مولاى ؛

إنِّى لإرشادِكَ آذانٌ صاغيةٌ ، وقَلبٌ واعٍ .

قال سُليمان :

إذا ما عُدتَ إلى بلادِكَ واجتمعتَ بمليكِكَ ، فاصحبْهُ فى يومِ جُمعةٍ ، واصعَدا فوقَ الشجرةِ الكبيرةِ الضَّخْمةِ التى تقعُ فى آخرِ بُستانِ الملكِ ، واختبِئا بينَ أغصانِها فإذا ما جاءَ وقتُ القَيلولةِ فلاحِظا ما سيَحْدُثُ بأسْفَلِ الشجرةِ . ففى هذا الوَقتِ ستجدانِ ثُعبانَيْنِ يَخرُجانِ من بينِ جُذورِها : أحدُهما رأسُه كرأسِ القِرْدِ ، والآخَرُ رأسُه كرأسِ العِفريت ، فأَسْرِعا إلى نُشَّابِكُما واضرِباهُما بها ، فإذا ما قتلتماهما فانزِلا عن الشجرةِ واقطَعا رأسَيهما وذيلَيْهما ، واتركاهُما ، وخذا باقى لحمِهما فاطبُخاه طَبخاً مُتقَناً ، وأَطْعِما منهُ زَوْجتيكُما ، فإنهما ستَحْمِلانِ بعدَ ذلك بغُلامَيْنِ بإذنِ الله .

فقال فارس

وقد استَخفَّه الفرحُ والسرور :

يا مولاى ؛

إنى لعاجزٌ عن شُكرِكَ ، وسأَعمَلُ أنا والملكُ إن شاء الله بنُصْحِك ، ونَتَّبِـع إرشادَك .

فقال سُليمان :

سافِرِ الآن على بركةِ الله ، فإنَّ الملكَ هُناكَ فى انتظارِكَ على أَحَرَّ من الجمْرِ .

ثم قَدَّمَ سليمانُ إلى فارس خاتَمًا وسيْفًا وكِيسًا من الحرير ، وقال له ضاحكًا :

وعند ما يَكْبُرَ الغُلامان ويبلُغان مَبلَغَ الرِّجالِ أَهد إليهما منِّى هذا السيف ، وهذا الخاتَم ، وهــذين القَباءَين المكلَّلَيْن بالجواهرِ اللذين ستجدُهما داخلَ الكيس .

فكَرَّرَ الوزيرُ فارسُ شُكرَه للملكِ سُليمانَ ، وتقبَّلَ منه الهديَّةَ ، كما تقبَّل منه هدايا أُخرَى أَرْسلَها سُليمانُ إلى الملكِ صَفوان ، وانصرف من حضرتِهِ إلى حيثُ كان رِجالُه الذين أَتَوْا معه فى انتظارِه بدار الضِّيافةِ فاصطَحَبهم ، وغادَر مدينةَ الملكِ سُليمانَ عائدًا إلى بلادِه .

(٤)

فلما أشرفوا على مِصْرَ بَعث فارسٌ نفرًا من خَدَمِه يُبشِّرُ الملكَ صفوانَ بعودتِهم ، وبقضاء حاجتِهم ، فسُرَّ الملكُ ، وسُرَّ معه أصحابُه وحاشيتُه ، وبَعثوا بالرُّسلِ لاستقبالِ الوزير .

فلما أقبلَ فارسٌ على الملكِ صفوانَ تلقّاه هذا بفرَحٍ وتَرْحاب فبشّره فارسٌ بقُربِ قضاء حاجتِه التى سافرَ هو ومَن معه مِن أَجْلِها ، وقصَّ عليه ما لقِيَ من حَفاوةِ الملكِ سُليمانَ بهم ، وعرّفهُ أنهم قد آمَنوا جميعاً بالله . ثم عرَض فارسٌ الإسلامَ على الملكِ ، فآمَن الملكُ وأسلمَ هو وجميعُ رجالِه وحاشيتِه ، وقد سُرُّوا سُرورًا كَبيرًا أنْ هَداهُمُ اللهُ إلى سَواء السبيل ، وإلى دِينه القويم .

وقال الملكُ لفارسٍ :

اذهب الآن واسترحْ أنتَ ومَن معك من مَشاقِّ السَّفر ، ثم تعالَ فكلّمْنى فيما سافرْتَ من أَجْلِه بعد أن تستريحَ ويذهبَ عنك تعب السفر .

فانصرفَ فارسٌ ومَن كان معه إلى منازلِهم وأهلِهم ليستجِمُّوا ويستريحوا وألسنتُهم تَلْهَجُ بالشُّكر للملكِ والثناء عليه .

وبعد أن نالَ فارسٌ قِسْطاً من الراحةِ توجّه إلى قَصْرِ الملكِ واجتمعَ به وأعلَمه بما كان بينَه وبين الملكِ سُليمانَ من حَديثٍ ، ثم اتفقا على أن

يُنفِّذا تعليماتِ الملكِ سُليمانَ فى أقربِ فُرْصةٍ تُمكِّنُهم مِن ذلك :

فلما كان يومُ الجمعةِ توجَّه الملكُ ووزيرُه وقد توشَّحا نبالَهما إلى حيثُ الشجرةُ الضَّخْمةُ التى عرَّفَها لهمُ الملكُ سليمانُ . فلما وَصلَا إليها تَعاوَنَا سَوِيًّا حتى اعتَلَيَا فُروعَها ، ثم اختبأَا بين أوْراقِها وأغصانِها .

ومَضَى الوقتُ بهما وهُما على هذه الحالةِ المُتعِبةِ لِكبَرِهما وضَعفِهما، ولكنْ كان كلُّ تعبٍ وكلُّ نَصَبٍ لدَى الملكِ ووزيرِه فى سبيلِ غايتِهما التى يَنشُدانِها هيِّنٌ ومرغُوبٌ فيه .

فلما حانَت ساعةُ القَيلولةِ اتجهاَ بأبصارِهما إلى أسفلِ الشجرةِ تتفرَّسُ بين فَجواتِ جُذوعِها فإذا بِهما يَرَيانِ رأسيْن يطُلَّانِ من بينِ فروجِ الجِذعِ ، ثم يَظهران شيئاً فشيئاً فإذا بهما كما وَصفَ الملكُ سُليمانُ رأسٌ كرأسِ القِرد، ورأسٌ آخر بَشِعُ المنظرِ كرأسِ العِفريت ، ومِن تحتِهما جَسدَا ثُعبانيْن ضَخمين مُطوَّقيْن بأسورتين من ذَهَب لامع ، وَهَّاج .

وأسرَعَ الوزيرُ إلى نُشَّابِه يُعدُّها لتصويبِها إلى أحدِ الثعبانين ، أمَّا الملكُ فقدْ هَمَس للوَزيرِ يقولُ له وعيْناهُ تَنظُران إلى الثُّعبانيْن .

ألا نستطيعُ أن نُمسكَهما حَيَّيْن من غيرِ أن تَقتلَهما ، ونَضعَهُما فى قفصٍ لنتفرَّجَ على خِلقتِهما العجيبةِ ؟

فأجابه الوزير :

ولكنْ هذا يا ملكَ الزَّمانِ يُفسد تدبيرَنا ، ويضيِّع علينا حاجتَنا

التى نَسْعى إليها ، وتحمَّلنا فى سبيلها التعبَ والمشاق .

فلم يسع الملكَ عند تذكيرهِ بقُرْب تحقيق رغْبته إلا أن شدَّ نُشَّابه هو الآخرُ وصَوَّبه مثل الوزيرِ نحو الثعبانِ الآخرِ ثم أطلقَه ، وأطلقَ الوزير نُشَّابه معَه فأصابا من الثعبانين مَقتلاً .

وهبطَ الملك والوزير من فوْق الشجرةِ ، وسَرعان ما كانا يقطعان بخناجِرِهما رأسَ كلٍّ من الثعبانين وذيلَه ، ثم يحمل الوزير لحمهما فى كيسٍ من القُماش كان معَه ، ويعودُ هو والملكُ إلى القصر .

وتوجَّه الملك إلى مَجلِسه ، وتوجه الوزير إلى حيثُ مَطبخُ الملكِ ، فأصدر تعليماتِهِ إلى رئيس طهاته بأن يُطبَخَ لحمُ الثعبانَين طَبخاً مُتقَناً ، ويجهِّزَهما فى وِعاءين ثم يأتيه بهما .

ونفَّذ الطاهى أمرَ الوزير ، فـلم يَمض من الوقت إلا القليلُ حتى أحضرَ له وعاءين مَملوءيْن لحماً تنبعث منهما رائحةٌ شهيَّة لذيذة .

وحملَ أحدَ الوِعاءين إلى زَوجَة الملك لتأكلَ منه ، وأرسل الثَّانى إلى زَوجةِ الوزير .

ولم يَطُل الأمرُ على الملك صفوانَ ووزِيره على سماعِ الخبرِ الذى اشتاقا إليه طويلاً .

ففى يومٍ جاء البَشيرُ يبشر الملكَ بخبرِ حمْل زوجتِه ، كما بشَّرت زوجة الوزير فارساً زوجَها بخبر حملِها .

وفرح الملك بهـذا الخبرِ فرَحاً شديدًا ، وأنعمَ على حامِله بالنِّعم

الجزيلة ، وكان فرحُ الوزير بحمْل زوجتِه كذلك لا يقلُّ عن فرح الملك، وأسرعَ إليه يُبشِّرُه ويُشاركُه الفرَحَ والابتهاج .

وأتمت الملِكةُ وزوجةُ الوزير شهورَ حملِهما . ثم جاء البشيرُ من جديدٍ يبشرُ الملكَ بولادةِ الملكةِ ويُنبئُه بوضعها مولودًا ذكرًا على جانبٍ كبيرٍ من الجمال ، فكان سرُور الملكِ بذلك الخبرِ فوق كلِّ سرور ، وكان ابتهاجُه وغِبطتُه بهذا النبأِ يفوقُ كلَّ وصف .

وأقبل الوزيرُ فارسٌ على الملكِ يهنِّئه بالمولود السعيدِ ، ويزُفُّ إليه خبرَ ولادةِ زوجَته مولودًا ذكرًا جميل الصورةِ ، فقال الملكُ لوزيره :

لقد حَقَّق الله لنا أمنيَّتنا التى تمنَّيناها طويلاً ، فحقٌّ لنا أن نَشْكُرَ اللهَ كثيرًا ، وأن نحمَدله رحمتَه وكرمَه ، وأن نُنعمَ على المحتاجين ، ونُجيب السائلين ونُفرِّجَ كربَ المكروبين. فعليك أن تأمر جميع طبَّاخِي المدينةِ أن يَنصُبوا نصباتٍ لهم فى جميع أنحاء البلد ، وأن يُعِدُّوا أواتيهم وقدورَهم ليَطبخوا سبعة أيام بلياليها للمحتاجين ولكل راغبٍ فى الطعام من أهل المدينةِ ومن الغرباء ومن المارِّين والمسافرين وأن تأمُر بذبح الذبائح وتوزيع الكساوَى ، وأفرِج عن المسجونين ، وارفَع ثلث الضرائب عن الغنى والفقير ، ولتُرفع الزِّينات، وتُنْصَب الحفلات فى كافَّة أرجاء المدينةِ .

فقال الوزير للملك : نِعْم الرأىُ رأيك هذا يا مَولاىَ ، أدام الله سعدَك ومتَّعك بحياةِ ولَدِك .

وأصدرَ الوزير أوامِرَه بإعداد ما أمر الملك به لِيشاركَهما الشعبُ فَرَحهما، وتقاسِمَهما الرعيَّة سرورها .

وقال الملك لوزيره :

يا فارس ؛ أَحضِر ولدَك ليُربى مع ولدى ، فيَشُبَّان أخَويْن متحابَّيْن .

فشكر الوزير للملك برّه وعطفَه ، وأحضرَ ولدَه وزَوجَته إلى قَصر الملك فقوبلا بحَفاوة وإكرام ، وأحضرَ للولدين المَراضع ، وخُصِّصت لهما الحاضِنات .

ثم أمر الملك أن يُؤْتَى له بالعرَّافين والمنجمين والفلكيِّين والعلماء ليَحْسبوا له طالع نجم ابنِه ، ويُعلموه بما كُتِب وخَبِّئ له فى علم الغيب . فجِىء بهم وعُرِّفوا برغبة الملك ، فأخذوا يحسبون ويؤرِّخون ويتنبَّئون ، ثم رفعوا تَقريرهم إلى الملك قائلين :

يا ملكَ الزمانِ ، إنَّ نجمَ ولدكَ مبارك سعيد حسنُ الطالع ، إلا أنه سيُصادفُ بعضَ المصاعبِ فى مُقتبل حَياتِهِ .

قال الملك :

أَفْصِحوا عما تعرِفون ولا تُخفوا عنى شيئاً ، ولا تَخشَوْا ضرًّا .

قالوا :

يا مولانا ؛ ستَتعرَّضُ حياة ولدك فى مقتبلِ عُمره للخطَر ، ويُقاسِى شدائد ويَقعُ فى مآزِق ، ثم يتخلَّصُ منها جميعاً بإذن الله ، ويعيش فى هَناءة وسعادة .

فاطمأنَّت نفسُ الملك لِمقالهم ، ولم يعلق فى ذِهنِه طويلاً ما قالوه عمَّا سيصيبُ ولدَه من شدائد ، بل قال لنفسه :

إنما العِلم عند الله ، وما كتِب على المرء لا بدَّ أن يراه .

ثم انصرف إلى إصدار الأوامرِ لإعدادِ الحفلات المقْرحة البَهيجة التى تدخِل السرورَ إلى قلوب حاشيَته وشَعبه لكى يُشاركَه الجميعُ الفرحَ ويُقاسموه السرورَ .

وانتشر الفرَحُ وعمَّت البهجةُ جميع أرجاء البلاد ، وشارك الناسُ مَليكَهمُ السعادةَ والسرور ، ودَعوْا له ولمولودِه بالعِزة ودوام الملك وطول العمْر .

وظلَّت الحفلاتُ قائمةً ، والزيناتُ تزيِّنُ الدورَ والدَّكاكين ، والناسُ يرتعون ويَمْرحون ويَأكلون سبعةَ أيام ، ثم أمَرَ الملك أن ينصرف كلُّ واحدٍ إلى عملِه ، بعد أن وزّع على المساكين والمحتاجين الصدقاتِ ووَهبَ لهم الهِباتِ .

وبعد مُرورِ هذه الأيام السبعة صعِد الملك والوزير إلى الجَناح الذى خُصِّص لوَلديْهما لرؤيتهما والاطمئنان عليهما والسرورِ بهما ، فأسرعت المراضع والحاضناتُ بإحضارِ الولَدَين إلى أبَوَيهما .

فأخَذ كلُّ أبٍ وَلدَه ، ونظرَ فى وَجْهه ، وقبّله بشَوْق وعطفٍ وحنانٍ. ثم سألت المَراضع والحاضناتُ الملكَ :

يا ملك الزمان ؛ ما الاسمُ الذى سيُعرَفُ به الأمير ؟

قال :

سيفُ الملوك .

فقُلن للوزير :

وما الاسم الذى سمَّيتَ به وَلدكَ السعيد ؟

قال :

لقد تركتُ أمرَ تسميَة رَفيق الأميرِ لمولانا الملك ليُسَمِّيَه كما يشاء .

قال الملكُ :

فليُسَمَّ ساعِدًا .

(٥)

وشَبَّ سيفُ المُلوكِ وساعِدٌ معاً يلعبَانِ ويَمرحَانِ بينَ رَحَبَاتِ قصْر المَلِكِ كأخَوينْ حَبيبَين لا يَفْترقَانِ لحظةً ، ولا يَغيبُ أحدُهُما عنْ نظرِ صَاحِبِه بُرهةً حتى يبحثَ عنهُ ويلحقَ به .

ولما أَتمَّ الولَدانِ العامَ الخامسَ من عُمرهما ، أحضر لهُما الملكُ المُعلِّمين والمؤدِّبين ليتَوَلَّوْا تَعليمَهُما وتهذيبَهُما ، ولما أَتمَّا العامَ العاشِر أحضر لَهُما الحكماء ليُفَقِّهُوهُما فى حِكَمِ الحَياة وعُلومِها ، وأحضرَ لهُمَا البَارعينَ فى الفُرُوسيَّةِ ليُعَلِّمُوهُما ضُرُوبها ، والحاذِقين فِى لعبِ السُّيُوفِ وضَرْبِ الرِّماحِ والنِّبَالِ ، ليُدَرِّبُوهُما عَلَى خَوَافِيها وفُنُونها .

وأظهرَ الولدانِ ذَكاءً وبَرَاعَةً ومَهَارةً فى كُلِّ ما تَعلَّماهُ ودُرِّبَا عَلَيْهِ ،

ومَا أتمَّا العشرين منْ عُمرهما وأصْبحَ شَبَابهُماَ ونَضْرتهُما مَضْرِبًا للأمْثَالِ ، حتى كَانَا لنُضْجِ عَقْلِهِماَ كَذلكَ حُجةً فى العِلْمِ ، ولبَرَاعَتِهِماَ فِى كُلِّ فنُونِ الفرُوسيَّةِ والرِّيَاضَةِ قدْوَةً لِكُلِّ راغبٍ وَمُحبٍّ لِهٰذَا الفَنِّ .

وكَانَ الملكُ ووزيرُهُ يُلاحِظَانِ نُمُوَّ وَلَدَيْهِماَ وتَرَعْرُعِهِما ، ورَجَاحَةَ عَقْلَيْهِماَ ، وكَمَالَهِماَ وفَرْطَ أدَبهِماَ بِسُرورٍ وإعجَابٍ ، ويُقَابِلَانِ حِكْمَتَهُماَ وَبَسَالَتَهِماَ بِبَهْجَةٍ وفَرَحٍ .

وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَ الملكُ لِلوزيرِ :

يا وَزيرِى ؛ قَدْ خَطَرَ بِبالِى أمرٌ أُريدُ أنْ أفْعَلَه ، ولٰكِنِّى أُحِبُّ أنْ أسْتَشيرَكَ فِيه .

فقال الوزيرُ : صَحَّ رأى مولاى وعظم ، وكان مصدر الخير والهناءة .

قال الملكُ :

إنِّى صِرتُ كما تَرَى : شيْخًا كبيرًا ضَعِيفًا هَرِمًا ، فأوَدُّ أن أعْتكِفَ لِنَفْسِى ، وأعْكُفَ عَلَى عبادَةِ اللهِ ، وأتْرُكَ أمْرَ المُلْكِ لِولَدِى سيفِ المُلوكِ ، فإنَّهُ كما تَرَى صَارَ شَابًا كاملَ الفرُوسِيَّةِ وَافرَ الأدَب ، راجِحَ العَقْلِ . فما قَوْلُكَ فى هٰذَا الأمْرِ ؟

قال الوزير :

نِعمَ الرأىُ الذى رأيتَ يا مولاى ، وما أصْوَبَه وأحْكَمَهُ ، فإذَا فعلتَ أنتَ هذا فلأتْرُكْ أنَا أيضًا مَنْصِبِى لولَدِى ساعد ، فهُوَ ذُو عِلْمٍ ومعْرِفَةٍ ودِرَايَة وهُوَ أصْلَحُ وزيرٍ للأميرِ سيفِ الملوكِ ، وأحسنُ رفيقٍ

ومستشار لَهُ ؛ ثم إنّ ذٰلكَ يا مَوْلاى لا يَمْنعُ من أنْ تلاحِظهُما ونرْشِدَهُمَا.

فوافقَ الملكُ على ما أبْدَى الوزيرُ مِنْ رأى، وقالَ له :

إذَنْ : اكتبْ إلَى عُمَّالِنَا فِى البِلادِ والأقَالِيم، وقوّادِنَا فى الحُصُون والقِلَاع بأنْ يحضُرُوا إلى هٰذه المدِينَةِ فى تاريخ عيَّنَهُ لَهُمْ، وَأنْ يكونَ اجتماعُهم فى الميْدان الكبيرِ، وذلكَ حتَّى نعرضَ عَلَيْهم ما اعْتَزَمْنَا، ونعلنَ لهُم ما تخيَّرْنَا.

فقال الوزير :

سَمعاً وطاعةً.

ثم نَهضَ من فَوْرِه إلى رِجَالِهِ وكَتَبَتِهِ فأمَرَهُمْ أنْ يَكْتُبُوا الكُتُبَ الَّتى أمَرَ بهاَ الملكُ ويُرْسِلوا بها عَلَى وَجْهِ السُّرعَةِ معَ الرُّسُلِ والسُّعاةِ إلى كافّةِ أنْحَاء البِلَادِ.

وأُعِدَّ الميْدانُ الكبيرُ لِهذَا اليَوْم : فَرُصَّتْ بِهِ المقاعِدُ، وأقيمَتْ الزِّينَاتُ، ونُصِبَتْ فى صَدْرِه مِنَصَّةٌ لِجُلوسِ الملكِ. وفى جانِبِ الميْدانِ أقيمَتْ سُرادِقاتٌ مُدَّتْ فِيها المَوَائِدُ استِعْدَادًا لإطْعَام الوافِدِين.

وأتَى اليومُ المُحَدَّد لِهٰذَا الاجْتِماعِ، فَغَصَّ الميدانُ بالوَافِدِين منَ الأمَرَاء والكُبَرَاء والرُّؤسَاء والقُوَّادِ، فضَاقَ بِهِم عَلَى سَعَتِهِ؛ فجلَسَ مَنْ جَلَسَ، وَوَقفَ مَنْ وَقفَ فى انْتِظَارِ حُضُورِ الملكِ الذى أمَرَ بِدَعْوتِهِم ؛ وارْتفَعَتْ أصواتُ بعضِ حُجَّابِ الملكِ يُنادُون :

ادْخُلُوا إلى مَوَائِدِ الملكِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِتَأْخُذُوا مِنْها حَاجَتَكُمْ مِنْ طَعَامٍ حَتَّى يَحِينَ مَوْعِدُ حُضُورِه .

فتقَاطَر المجتمعُونَ إِلَى المَوَائِدِ ، وتَنَاوَبُوا الدُّخُولَ إليهاَ فَوْجاً بَعْدَ فَوْجٍ فَنَالُوا من طيِّبَاتِ ما أُعِدَّ لهُم ، وعادُوا إِلَى أَمَاكِنِهم وأَلسِنَتُهم تَلْهَجُ بالشُّكرِ لِلملكِ ، والدُّعاء لَهُ ولنَجْلِهِ الأَمِيرِ .

وحضرَ الملكُ واتَّخذَ مجلسَهُ فوقَ المِنَصَّةِ وبعدَ أَنْ حَيَّا الحَاضِرِين قالَ : —

أَيُّهَا الأُمرَاء والوُزراء والكُبَراء وأربابُ الدَّوْلة ؛ تَعْلَمُونَ جميعاً أَنَّ هٰذِهِ المَمْلَكَةَ لِي وِراثَةً عَنْ آبَائِي وأَجْدادِي .

فَتجاَوَبَ المَيْدانُ بأَصْواتِ الحَاضِرِين يُجِيبُونَ الملكَ بقَوْلِهِم :

نَعَمْ أَيُّها الملكُ ؛ كُلُّنَا نعلَمُ ذٰلك .

قال :

تعلَمونَ أَنَّنَا كُنَّا فيما مَضَى نعبُد الشَّمس ونَسْجُد لهَا ، ثُمَّ هَدانَا اللهُ إِلَى الإِيمَانِ بِهِ ، وأَخرجَنا منَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ .

قالوا :

نَعَمْ ، والفَضْلُ فى ذٰلكَ لمِولَانا الملك .

قال :

والآنَ أصبحتُ شيخًا هَرِماً ، وأَوَدُّ أَنْ أَعْتَكِفَ وأَعْكُفَ عَلَى الصَّلَاةِ والعِبَادَةِ فأَجْعلَ محَلِّي فى حُكْمِكُمْ ولَدِي سيفَ الملوكِ الَّذِي

تعرِفُونَ أَنَّهُ شَبَّ عَلَى الشَّجَاعَةِ وحُبِّ العِلْمِ والعَدْلِ ، فما تَرَوْنَ ؟ ومَا قَوْلُكُمْ ؟

قال أَحَدُهُمْ :

أَيُّها الملكُ ، لَوْ أَنَّكَ ملَّكتَ علَيْنا عَبْدًا من عَبِيدِكَ وارْتَضَيْتَهُ لَنَا مَلِكًا لَرضينَا بِهِ وقَبِلْنَاهُ ، لِمَا نَعْلَمُهُ مِنْ حُبِّكَ لَنَا ، وعَمَلِكَ لِرَاحَتِنَا ورَفاهِيَتِنَا وخَيْرِنا ، فَكَيفَ بِابْنِكَ سيفِ المُلوكِ الَّذِى نُحِبُّهُ كَحُبِّنَا لَكَ ، ونعزُّهُ ونَحْتَرِمُهُ كَإِعْزَازِنَا واحْتِرَامِنَا لمَقَامِك ! !

عنْدَئِذٍ نَهَضَ الملكُ صفْوَانُ من فَوْقِ كُرْسِيِّهِ ، ودَعا وَلَدَه سيفَ المُلوكِ الَّذِى كَانَ يجْلِسُ بالقُرْبِ منهُ أَنْ يَحُلَّ مَحَلَّهُ ثُمَّ رفعَ التَّاجَ مِنْ فوْقِ رأْسِهِ ، وَوَضَعَهُ فوقَ رَأْسِ وَلَدِه ، وَخَلَعَ السيفَ والمِنطَقَةَ ، وقَلَّدَهُمَا لِلْمَلِكِ الْجَدِيد ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى مَجْلِسٍ آخرَ بالقُرْبِ مِنْ وَلَدِه .

وكَانَ الحاضِرون جَميعاً يرقُبُونَ ما يَجْرِى مِن الإِجْرَاءاتِ بينَ الملكِ المُتَنَازِلِ والمَلكِ الجَديدِ فلَمَّا انتَهتْ هٰذِهِ الإِجْراءاتُ نَهَضُوا جميعاً مِنْ مَجالِسِهم ، وَسَارُوا وَاحِدًا بَعْدَ آخر إِلى حيثُ الملكُ سَيْفُ المُلوكِ ، فأقسَمُوا لَهُ يمِينَ الوَلَاء وأَعْلَنُوا لَهُ الطَّاعةَ ، ودَعَوْا لَهُ بالعِزَّةِ والنَّصْرِ ، وهَنَّئوهُ مُتَمَنِّين لَهُ الخيرَ والعِزَّة .

وبَعْدَ أَنْ عادَ النَّاسُ إِلى أَمَاكِنِهم نَهَضَ الوزيرُ فارسُ مِنْ مَجْلِسه ، ووَجَّهَ خِطَابَهُ إِلَيْهِم قائِلًا :

يَا أُمَرَاء البلاد ، ويا أَرْبَابَ الدَّولَة ؛ تَعْلَمون أَنِّى فى مَنْصِبى هٰذَا مِن

قَبْلِ أَنْ يَتَوَلَّى الملكُ صَفْوانُ المُلْك .

أجابَ الحاضِرون :

نَعَمْ ؛ إنَّا نَعْلَمُ ذٰلك .

قال :

فَإذا كانَ الملكُ صفوانُ قَدْ تَنَازَلَ لِوَلَدِه الملكِ سيفِ المُلوكِ عَنِ المُلكِ لِكِبَرِه ، فَقَدْ حُقَّ لي أَنَا أَيْضًا أَنْ أَتَنازَلَ عن مَنْصِبِ الوِزَارَةِ ، وقَدْ تَفَضَّلَ الملكُ وقَبِلَ تَنَازُلِي وقَبِلَ أَنْ يَتَوَلَّى بَدَلًا مِنِّي وَلَدِي ساعد ، رَفِيقُ الأمير ، فما الَّذِي تَرَوْنَ ؟

قالوا :

نَرَى أن وَلَدكَ ساعِدًا هُوَ خيرُ وزيرٍ للمَلكِ سيفِ المُلوكِ ، وأَصْلَحُ مُسْتَشارٍ له .

عندَئذٍ خَلَعَ الوزيرُ فارسُ عمامةَ الوزارة مِن فوقِ رأسِهِ ، وَوَضَعَهَا فوقَ رأسِ وَلَدِه ، وقدَّمَ لَهُ دَوَاتَه ، وأَعْطَاهُ أَخْتَامَه ؛ فَنَهَضَ جُمْهورُ النَّاسِ يُهنِئونَ الوَزيرَ الجَديد بِمَنْصِبِه ، وتَقَدَّمَ الكُتَّابُ والحُجَّابُ يَبْغُونَ إمْضَاءَ المَنْشُوراتِ وخَتْمَ المَراسيمِ الَّتي سَتُوَزَّعُ عَلَى أُمَرَاءِ البِلَادِ وحُكَّامِها باسْمِ الملكِ الجديد ؛ فأَمْضَى ساعِدٌ وخَتَمَ ووُزِّعَتِ المَراسِيمُ والمَنْشُوراتُ على الحاضِرِين مِنْ أرْبابِ الدَّولة ورُؤَسائِها وقُوَّادِها .

ثم نَهضَ الملكُ سيفُ المُلوكِ مِن مَجْلِسِه ، وبِذٰلك أَعْلَنَ انتهاءَ حَفْلِ تَتْوِيجِهِ فنَهضَ الجميعُ لِنهوضِه ، ثمَّ ابْتَدأَ المَيْدانُ يخلو من النَّاسِ شيئًا

فشيئاً ، وذلك بعدَ أن تقبَّلُوا بالشُّكر والدُّعاء خِلَعَ الملكِ سيفِ المُلوكِ التى أمَرَ بخَلْعِهَا عَلَى جَمِيعِ الحاضرين ، كما أمَرَ بتَوْزِيعِ الهبَاتِ ، ومَنْحِ العَطَايَا لِلفقَرَاء والمسَاكِين .

فلمَّا عَادَ سيفُ المُلوكِ وأبُوهُ وَوَزِيرُهُمَا إلَى القَصْرِ . قالَ الملكُ صَفْوَانُ لوزيره فارس :

لقد حانَ الوقتُ لأَنْ نُقدِّمَ لِوَلَدَيْنَا هَدِيَّةَ الملكِ سليمانَ التى بَعَثَهَا لَهُمَا مَعَكَ .

قال فارس :

نعم ؛ فَهَا هُمَا قدْ شَبَّا وَكَبِرا ، وبَلَغا مَبْلَغَ الرِّجَال ، وتَحَمَّلَا مَسْئُولِيَّةَ الْحُكمِ ، وأُلقِي عَلَى عَاتِقِهِما حكمِ المَمْلَكَةِ ، يُحَقُّ لَنَا أن نُعطِيَهُمَا الهَدِيَّةَ .

فأمَرَ الملكُ صفوانُ صاحبَ خزَائِنِهِ أن يَأْتِيه بالصُّنْدُوقِ الَّذِي يَحْوِى هَدِيَّةَ الملكِ سليمانَ ، فلمَّا أتاهُ بِهِ فتَحَهُ أمامَ سيفِ الملوكِ وسَاعِد ، وقالَ لَهُمَا :

هٰذِه هدِيةُ الملكِ سُلَيْمَانَ لَكمَا ؛ وهِيَ قَبَاءَان وخَاتَم وسَيْف ، فَلْيَخْتَرْ كُلُّ واحِدٍ منكما ما يَرُوقُه مِنها .

فمدَّ سيفُ المُلوكِ يدَه إلى الصُّنْدُوقِ ، فأخَذَ الْخَاتَمَ وأحدَ القبَاءَيْنِ وأَخَذَ سَاعِد السَّيْفَ والقبَاء الآخَر : ثم شَكَرَا وَالِدَيهِما ، وسَلَّمَا عَلَيْهِمَا وصَعِدَا إلى غُرْفتِهِمَا لِينَامَا .

(٦)

كان سيفُ الملوكِ وساعدٌ ينامان في غرفةٍ واحدة منذُ أن كانا طِفلَين ، فلمَّا صَعِدا ليناما بعد أنْ أخذا هَديَّةَ سليمانَ ، وشكرا والدَيْهما ، كانتِ الوصيفات قد أعْدَدْنَ لهُما غرفتهما : فأوْقَدْنَ الشموعَ حولَ فِراشِهما ، وأحْضرنَ لهما ما يحتاجانِ إليه من ماء وغيره .

وكان النومُ قد تسلَّطَ على سيفِ الملوكِ فألْقى بالقَباء على تَختٍ بجِوارِ الفِراشِ وخَلَع رداءَ المُلك ، ورقَد على الفِراش : وحَذا ساعِدٌ حذْوَه ، فلم يَلبثاَ حتى استَغْرَقا في نومٍ عميق .

وانتصف الليلُ : فانتبهَ سيفُ الملوك منْ نومِه ، وفتَحَ عينَيْه: فوَقعتَا على القَباء الذى وضَعه بجِوارِ الفِراش قبل أن ينام ، فمدَّ يده يقلبُهُ متفرِّجاً عليه ، فلمَحَتْ عينُه على بِطانتِه رسْمًا يُشبه الصُّورةَ ، فغلبَهُ الشَّوْقُ إلى أنْ يتعَرَّفَ : ما هِى ؟ فنهَضَ من فراشِه ، وأخذ الشُّموعَ ، التى كانتْ فوقَ سَريرِه ، وأخذَ القَباء ، ودخلَ إلى حُجرةٍ أُخرى مُلْحَقةٍ بغرفةِ نومِه ؛ وهُناكَ نشَرَ القَباَء وأنارَ الشموعَ فوقَه ليتفرَّجَ عَلَى ما فيه من رسم .

وصَعِدَتْ من صَدرِ سيفِ الملوكِ شهقَةٌ ثم آهة . . . ! !

كان الرسمُ الذى وقعَتْ عليْه عيناه يُمَثِّلُ فتاةً في مَيْعةِ الصِّبا ، بارِعةَ

الجمالِ ، طاغِيَةَ الفِتنةِ ، قد طُرِّزَتْ على حريرِ بِطانةِ القَباءِ بسلوكِ الذهبِ ، وَوُشِّيَتْ بخيوطِ الفضَّة .

وأَحَبَّ سيفُ الملوكِ الفتاةَ من صورتِها ، وعشِق جمالَها ، وهامَ بفتنتِها ، وأوشكَ عقلُهُ أن يَذْهَبَ منه ، وهُو يَجُولُ بعينيْنِ مِلؤُهما الإعجابُ الشديدُ فى مَفاتِنِ الصُّورةِ .

وجَلسَ سيفُ الملوكِ بجوارِ القَباءِ مأخوذًا ذاهِلًا . . ! ! وسَرَّحَ فِكرَهُ فِيمَن تكونُ صاحبةَ الصورةِ ، وفى أىِّ مكانٍ تُقيم ؟!

ومرَّ الوقتُ وسيفُ الملوكِ بجلستِه هذه ، ونظرُهُ مُصوَّبٌ نحوَ الصورةِ لا يَحِيدُ عنها وعقلُه سارحٌ شارد لا يَهدأُ له قرار ، وعيناه تدمَعان حُزنًا وقلقًا . . ! !

وقُبيلَ الفجر انتبَه ساعدٌ من نومِه فلم يجدْ سيفَ الملوكِ فى فراشِه ، فظنَّه قد غادرَه لحاجةٍ لهُ ، ولكنَّ الوقتَ مضى دون أن يعودَ ، فتعجب ساعدٌ من ذلك وتولَّاه القلقُ ؛ فنهض يستطلع الخبر ، فلاحظَ أن الشموع التى تضىء فوق رأسِ سيفِ الملوكِ ليست بمكانِها فعرَف أنه قد أخذها ؛ وقصدَ إلى مكانٍ مُظلمٍ ليستْ به إضاءةٌ لكى يستنيرَ بها ؛ فوقف يلتفتُ هُنا وهُناك ، فلاحظَ أن باب الحجرة الداخلية الملحَقةِ بغرفةِ النَّومِ ليس بمحكَمِ الإغلاق ، فسار إليه وفتحه ، ونظر إلى داخِل الحجرة ، فوجدَ بها سيفَ الملوكِ جالساً ودموعُه تجرى على خَدَّيه . بجزعٍ لمرآهُ ، وأقبلَ عليه يستفسرُ عن الأمرِ قائلاً :



سيف الملوك وقد وقعت عيناه على رسم يمثل فتاة فى ميعة الصبا

يا أخى ؛ ماذا بك ؟! وما الذى يُبْكيك ؟!

فلم يسمعْ ساعدٌ من سيفِ الملوكِ جواباً ، فعجِب لذلك ، وأعاد عليه الكلام قائلاً :

صرِّحْ لى يا أخى بما جَعلك تغادرُ فراشَك لتبكى ها هُنا وَحْدكَ !!

ولكنَّ سيفَ الملوكِ ظلَّ على صمتِه ولم يحِرْ جواباً ، فتحيَّرَ ساعدٌ من أمره وقال له :

أَنا أَخوكَ ؛ وتربيت معك يا سيفَ الملوك ، ولم يَعْتَدْ أحدُنا أن يُخفِىَ عَلَى أَخيه أمرًا ، والآن صرتُ وزيرَكَ ومستشارَكَ ، فاركَنْ إلىَّ فى كلِّ ما يَحزُبك من أمرٍ صَغُر أم كَبُر.

وانتظرَ ساعدٌ جوابَ سيفَ الملوكِ ، ولكنَّ سيفَ الملوكِ ظلَّ مُطرِقَ الرأسِ لا يُجيب .

فجلسَ ساعدٌ بجانبه يُحادثُه برفق ، ويَربتُ له عَلَى كَتِفه ، ويمسحُ له رأسَه، ليُسرِّىَ عنهُ ما به، ويُطمئِنَ نفسَهُ لعلَّه يبوحُ له بما اعتراه ، ويعلِمُه سببَ حُزْنِه وبكائِهِ ؛ ولكنَّ سيفَ الملوكِ ظلَّ على إطراقِه وصمته ، فقد كان مستَحْيياً أن يصرِّحَ لساعدٍ بالسبب .

فلما رأى ساعدٌ أن سيفَ الملوكِ لا يردُّ عليه ولا يُجيبُه ولا يفسرُ له ما أَصابَهُ ، نهضَ وخرجَ من الغُرفةِ ثم عاد ومَعهُ سيفُه فوضعَ طرَفه فوقَ قلبِه ، وخاطب سيفَ الملوكِ بقوله .

يا أخى ، بما أنى صرتُ غيرَ أهلٍ لثقتِك ، فلم تَرْضَ أن تُطلعَنى عَلَى

سرَّكَ ، وفقدتُ مركزى لديك فلم تقبل أن تَكشفَ لى ما بنفسك — فقد وَجَب علىَّ الموتُ ، وحُقَّ لى أن أقتُل نفسى .

إزاء ذلك رفع سيفُ الملوكِ رأسَه ، ونظر إلى ساعد بعينين مُغْرَوْرقتَيْن بالدموعِ وقال :

يا ساعِد ؛ ليس بى من ناحيتِك مما تقُول شىء ، وإنما أنا أستَحْيِي أن أُصرِّح بما أصاب نفسى .

قال ساعدٌ دَهِشاً :

أتَسْتَحْيِي أن تصرِّحَ لأخيك وَوَزيرِك ومُسْتَشارك ؟ !

عندئذ أشارَ سيفُ الملوكِ إلى القَبَاء وقال لساعد :

انظرْ إلى هذه الصُّورة .

فنظَرساعدٌ إلى صورةِ الفتاةِ التى سلبَتْ لُبَّ سيفِ الملوك بدهْشةٍ وعجَبٍ لإتقان تطريزِها وَإظهارِها فى هذا الجمالِ الباهرِ الساحرِ ، ولكنه لم يستطِع أن يفسرَ السببَ الذى يربِط بينها وبين ما عليه سيفُ الملوك من حُزن ، فدارَ بعيْنيْه يتفحَّصُ التطريزَ الذى يُمثِّلُ إطارًا للصورة فوجد بأعلاهُ كتابةً قد نظمَتْ بحبَّاتِ اللُّؤْلُؤِ جاء فيها :

هذه صورةُ بديعةِ الجمالِ بنت شمَّاخ بن شاروخ . مَلِك من مُلوك الجان المؤمنين الذين ينزلون فى مدينةِ بابل ، ويَسكُنون بستان إرم بنِ عادٍ الأكبر .

فنظرَ ساعدٌ إلى سيفِ الملوكِ وقال :

أَعلمتَ يا أخي مَن هِي صاحبةُ هذه الصورة ؟

قال سيفُ الملوكِ :

لا يا أَخي لم أعرِفْ لَمنْ هذه الصورة ، وليتني أَعرِفها ! ! وليتني أعرفها ! !

فأَدركَ ساعدٌ ما بسيفِ الملوكِ فقال لهُ :

أما رأَيت هذه ؟ ؟ وأشار إلى الكتابة .

فعجِبَ سيفُ الملوكِ من وُجود كتابةٍ لم يَرَها ، وأَقبل على قراءتها وَلكنهُ ما كاد ينتهى من قراءتها حتى صرخَ صرخةً رَنَّ صَدَاها فى أَرْجاءِ الغرفَة ، وسَقَط بينَ ذِراعَىْ سَاعِد يبْكى بحُرقةٍ وَلَوْعَة .

وأَخَذ سَاعدٌ يُوَاسِيه ، ويهوِّنُ عليْه ، ويُطَيِّبُ خاطِرَه ، ويُشَجِّعُه بقَوْله :

يا أَخِي ؛ لا تحزَنْ ولا تَيْئَسْ ، فَفِى بناتِ مُلوكِ الإنسِ مَن هِىَ أجملُ من بناتِ الجان ، وإِن كان لا بُدَّ من بديعةِ الجمالِ هذه فسوفَ نسألُ لك عنها التجَّارَ والمسافرين والسَّائحين حتى نستَدِلَّ على مكانِها ، ولكنْ يجبُ عليْك الآن أن تتَشَجعَ ، وتصرفَ عنك ما بكَ ، حتى تستطيعَ أن تقومَ بالحكمِ اليومَ بينَ الناسِ .

وأَصبحَ الصَّباحُ ، فأَصبح خَدمُ قصرِ الملِكِ وحجَّابُه يُعدُّون مجلسَ الملِكِ الجديد سيفِ الملوكِ الذى سَيَحْكُمُ فيه بين النَّاسِ ، ولكنَّ

الملكَ أصبحَ وليستْ عندَه المقدرةُ على النُّزولِ إلى مَجلسِه ، وليسَ في استطاعتِه الحكمِ بين الناسِ ؛ فقد أصبح مريضاً ضعيفاً محموماً متقرِّحَ العَيْنين .

وابتدأتْ وفودُ الأمراء والكُبراء تفِدُ إلى مَجلسِ الملكِ الجَديد . منهم من جاء يُعاوِدُ التهنئة ، ومنهم من جاء يعرضُ أمْرًا أو يطلبُ قضاء مصلحةٍ ، وبينماهُم في انتظارِ قُدومِ الملكِ سيفِ الملوك . خرجَ وزيرُه ساعدْ إليهم يقول :

يؤسِفُني أن أعرِّفَكم أن الملكَ قد أصْبحَ منحرِفَ الصِّحةِ ، ولنْ يستطيعَ أن يُباشرَ الحكمَ بينكم اليوم .

فانصرفَ الناسُ وهُم يُبدون أسَفَهم لذلك ، ويطلبون من الله أن يُعَجِّلَ بشِفاء الملك .

أمَّا الملكُ صفوانُ فقدْ جَزِعَ لمرضِ وَلَدِه ، ودَعا الأطباء والحكماء لمعالجتِه ومُداوَاتِه .

ومرَّت الأيامُ وسيفُ الملوكِ في فراشِه ، وقد اشتدَّ عليه المرضُ ، وألحتْ عليه العلَّةُ وزاد به الضعفُ ، وأصابه الذُّبول ، وتولاه الذُّهول ، رغمَ عيادةِ أمهرِ الأطباء له وحضورِ أحكَمِ الحكماء لمداوَاته ، وسهرَ الجميعُ على خِدمتِه ، وتلبيَتِهم لأيِّ إشارَةٍ من إشاراتِه .

وزادَ جزعُ الملكِ صفوان ، واشتدَّ قلقُه على ابنِه ، وغضِبَ أشدَّ الغضب على الأطباء والحكماء الذين لا يستطيعون أن يَشفُوا له ولدَه ،

فأمرَ باستحضارِهم جميعاً لديْه وصاح فيهِم حانقاً ساخطاً :

ويلكُم إن لم تَشفوا لى ولدى !! أَعَجَزتم جميعاً عن مُداوَاتِه ، ومعرفةِ دائه أم هو تهاوُن وتكاسلٌ منكم ؟!!

فقال كبيرُهم :

يا مَلِكَ الزمان ؛ إننا لا نَضِنُّ بجهودٍ ، ولا نَدَّخِرُ وُسْعاً فى مُداوَاةِ كلِّ مَنْ يُعرَضُ علينا من المصابين والمرْضى ، فكيف بنا إزاء ابنِك ! إن ابنَك يا مولاىَ به مرض غيرُ المرضِ الذى اعتدنا أن نداويَه ، فإن شئت أن تعرفَه عرفناك إياه .

فصاح الملكُ بالرجلِ قائلاً :

ألم آتِ بكم وأجمعْكم لمعرفةِ داء ولدى ؟ ! والآن تزعُم أنكم تعرفونه ولكنكم لا تعرِفون دواءه !! أفصِح يا رجل عما تعرفون عن مرضِ ولدى .

قال الرجلُ :

أتُعطينى الأمانَ لأَتكلَّم ؟

قال الملكُ :

تكلمْ ولا عليْك .

قال الحكيمُ الطبيبُ :

ولدُك ليس مريضاً بداءٍ جسدى ، ولكنه مريضٌ بداء روحى ، إن ولدَك يُحبُّ من لا سبيل إليه !

عندئذٍ اشتدَّ غضبُ الملك ، وصاح بالرجل وهو يكاد يتميز حنقاً وغضباً :

وَيْلك يا رجُل ! ! ما الذى تقول ؟ ! ومَن أدراك بمثل هذا الكلام ؟ !

قال :

سَلْ فى ذلك وزيرَ ولدك ، فإنه على علم بحاله .

فنهض الملكُ من مجلسه ، ودخل إلى إحدى حُجرات القصر ، ثم أمرَ باستدعاء الوزير ساعد على الفور . فلما حضر بادرَه الملك القولَ حانقاً :

يا ساعد ؛ تعلمُ داء ولدى ومُصابَه ، وتكتمه فى نفسك عنِّى ؟ ! وتتركه عليلاً مريضاً على وَشْك الموتِ ؟ ! لِمَ فعلتَ ذلك ! ولِمَ لم تخبرنى بما تعرفُ ؟ !

قال ساعد وقد أرتجَ عليه القول :

ومن أين لى يا مولاى أن أعرفَ مرضَه ؟ !

فصاح الملكُ عليه غاضباً :

لقد علمتُ أنك تعرفُه ، اصدُقنى ! ! ما مرضُ ولدى ؟ ! وإلا أطحتُ برأسك .

قال ساعد متلعثماً :

أعطنى الأمانَ يا مولاى .

قال الملك :

لك ما تطلب .

قال ساعد :

إن مرضَ ولدِك ما هو إلا الحبُّ يا مولاى .

سأل الملك :

ومَن يُحب ؟ !

قال ساعد :

بنت ملك من ملوك الجان ، رأى صورتَها فى القَباء الذى أهداهُ إليكم الملكُ سليمانُ .

فدُهش الملكُ لهذا القولِ الغريب ، ونهضَ من فوْرِه فتوجَّهَ إلى ابنهِ فى مخدعِه وقال له :

يا ولدى ؛ لماذا لم تخبرْنى بحقيقةِ حالك ؟ ! عرّفْنى ماذا دَهاك ؟ ! ! وما هى قصةُ صورةِ القَباء ؟ ! !

فنظر سيفُ الملوكِ إلى أبيه فى استرحامٍ وقال :

يا أبت ؛ اعفُ عنِّى ، لقد كنتُ أستحى منك ، ولا أستطيعُ أن أخبرَكَ بحالى أو أتذكَّرَ لك خبرى ، والآن وقد ألمت بما بى فانظرْ يا أبى فيما يكونُ لمداواتى وَشِفائى ، وما علتى إلا ما عرفت ، وما شفائى إلا بمن أحببت .

قال الأب :

يا بُنىَّ ، تكونُ الحيلةُ نافعةً لو كانت هذه البنتُ من بنات الإنس ، أما وهىَ من بناتِ الجانِ فما هىَ حيلتُنا فى الوصولِ إليها ؟ ! وما قدْرتُنا

على معرفةِ مكانها ؟ إنه لا يعرفُ هـذا ولا يقدرُ عليه من البشرِ إلا الملكُ سليمان !

يا بُنيَّ ؛ استمِعْ لى ، واستجِبْ لنصيحتى ؛ اصرفْ عن ذِهنك هـذا الأمر ، وخلِّ عن بالك هـذا الفكر ، وأنعِش روحَك ، وقوِّ نفسك ؛ وسأُنظِّم لك رحلةً جميلة للصيْدِ وَالقنص تخرج فيها مَعَ لِدَاتِك وأصحابك ، وبذلك تسلِّى نفسك ، وتصرفُ عن ذهنكَ هذا الفكر الخاطئ ، وأدُلُّك على مائةِ بنتٍ من بنـات الملوك من صاحباتِ الحسن والجمال لتتخيَّر من بينهن من تشاء

قال سيفُ الملوك وهو يهزُ رأسه آسفاً :

يا أبى ؛ ليست لى حيلةٌ فيما بى ، وما أنا بقادر على أن أتركه أو أتخلص منه . قال الأب :

وما حيلتنا فى ذلك يا ولدى ؟

قال سيفُ الملوكِ :

مُرْ جميعَ التجارِ والمسافرين والسَّائحين من كافَّةِ أرجاء البلاد أن يحضروا لِنسألهمْ فى ذلك ، لعلّ أحداً منهم يعرفُ أينَ هيَ مدينةُ بابل ، وأين بستانُ إرم اللَّذانِ هما مقرُّ بديعة الجمالِ ومسكَنُها .

وغادرَ الملكُ صفوانُ مخدعَ ابنه وهوَ فى حيْرة وقَلَق أشد مما كان عليه وقت دخوله لقد كان يأمُل وقد عرَفَ ما بِولَده أن يحتال فى حيلة تذهب عن ولده ما به، ولكن ها هو ذا قد وقعَ فى حيْرَة لا يدرى معها كيف يُنجِّى

ولده ؟ ! ! ؟ ولا كيف يخرجُ به مما هو فيه ؟ ! !

ولم يجد الملكُ صفوانُ بُدًّا من أن يلجأ إلى ما أشار به عليه ولده ، فأمر باستدعاء جميع التجار الذين جابُوا البلاد بتجارتهم ، وكل من سافر وتغرب وساح في البلاد .

وتبعاً لهذا الأمر صارَ قصرُ الملكِ مزارًا للوُفود التي تفِد عليه كلَّ يوم من كافةِ أرجاء المملكةِ لتُسْأَلَ عما تعرفُ عن مدينة بابل التي بها بستانُ إرم ، وكان جوابُ جميع رجالها أنهم لا يعرفونها ولم يسمعوا عنها .

وأخيرًا قال رجلٌ منهم للملك صفوان .

يا ملكَ الزَّمان ؛ ابعث إلى بلاد الصِّين من يسأل عن هـذه المدينة ، فبلادُ الصين بلادٌ كبيرة ، ولعلَّ فيها من يرشِدُك إلى ما تبْغي .

ومالَ الملكُ صفوان إلى هـذا الرأى ، وحبَّذَ فكرة إرسالِ نفرٍ من رجاله إلى بلاد الصين ، ولا سيما أنه كان على اتِّصالٍ ومعرفةٍ ببعض مُلوكها ، ولكنَّ ولده سيفُ الملوك قال له :

يا أبى ؛ جهِّز لى مركباً ، وأنا أسافر لأقضى هذا الأمر بنفسى .

قال الأب :

يا ولدى ؛ إنك ضعيف لا تتحملُ مشاقَّ السفر ، ابق أنت هنـا فى مملكتك ، وأدِرْ شئونها ، وأنا أسافرُ عوضاً عنك ، فأسأل لك على كل ما تبغى .

قال سيفُ الملوك :

لا يا أبى ، إنِّى لن يرتاح لى بالٌ ، ولن يهدأ لى قلب حتى أُنفِّذَ أنا هـذا الأمر . فما يقدرُ أحد أن يفعلَ مثلما أفعل ، ولا أن يبحثَ مثلما أبحث كما أنه سيكون لى فى هـذا السفر متعة وترْويح عن نفسى ؛ فإن وجدتُ ما أطلب كان منتهى سعادتى ، وإن لم أجد أكونُ قد أرحتُ نفسى ، وأعود إليك سالماً بإذن الله .

فلم يجد الملك صفوانُ بُدًّا من أن يُنفِّذ رغبةَ ولده ، فأمر بإعدادِ السفن وشحنها بكل ما يلزم من مُعِداتٍ وأسلحة وطعـام ، وتزويدها بالرجال المهرة والمَلَّاحين الشُّجْعان . وفى اليوم الذى تحدَّد للسفر وقف الملكُ صفوانُ وَوزيرُه فارس يُوَدِّعان ولَدَيهما سيفَ الملوكِ وساعدًا ، ويوصِيانهما بنفسيْهما وصحبتهما خيرًا . ومن ثم استقلَّ الولدانِ إحدى السفن فسارت بهما على بركة الله تتقدَّمُها وتتْبعُها السفن الأخرى .

(٧)

كان سيفُ الملوكِ قد انتَعشتْ نفسُه ، وقوِيت رُوحُه ، واستعادَ بعضَ قوَّتِهِ حينما عَلِم أنه بسبيلِ السفرِ للبحثِ عن محبوبتِه بديعةِ الجمالِ ، فكان لهواء البحرِ وتغييرِ المناظرِ تأثيرٌ حسنٌ زاده انتعاشًا وقوَّة .

وطابتِ الريحُ للسُّفن فما زالَت مُسافِرةً به وبمن معه حتى أشرَفَ على سواحِل بلادِ الصِّين ، فأصدرَ سيفُ الملوكِ أمرَه بإرساء السُّفنِ فى أوَّلِ ميناء يَمرُّونَ عليه .

فكان أنْ وَجّه الملاحُون السُّفُنَ إلى أوّلِ ميناءٍ كى يَرْسوا فيه .

وكان هذا الميناء ميناء لمدينةٍ عظيمةٍ تقعُ على ساحلِ البحرِ ، بها مَبانٍ ضخمةٌ عاليةٌ ، ومنشئاتٌ كثيرةٌ ، وبها حركةٌ وضجيج .

ورأى جنودُ المدينةِ وحُرّاسُها سفُنَ سيفِ الملوك وهى تَدْخُل إلى مينائِهم بكَثرتِها ، وقد زُوِّدت بالرِّجال والسِّلاح ، فَظنُّوا أنها سفُنٌ أتتْ إليهم تَبْغى قتالَهم ومُحاربَتَهم ؛ فطيَّروا الخبر إلى مَلِكهم ، فأمرَ فى الحالِ بقفلِ أبوابِ المدينة ، وتجهيزِ الُجنود ، ونَصْبِ المنجنيقات .

ورأى سيفُ الملوكِ هذه الحركةَ التى قوبلَ بها حين دخلت سفُنُه الميناء ، فأدْركَ ما ظنَّ أهلُ المدينةِ بها ، فتخيَّر بعضَ نفرٍ من مماليكه وقال لهم :

انزِلوا وتوجَّهوا إلى حُرّاسِ هذه المدينةِ ، واطلُبوا إليهم أن يذهَبوا بِكُم إلى مَلِكهم وعرِّفوه أنكم رُسُلى ، وأنى ما قَصدتُ إلى الدُّخولِ فى هذه المدينةِ إلا للزيارةِ ومُشاهدةِ البلاد ، فإن قَبلَ دُخولى دخَلتُ ، وإن لم يَقبلَ انْصرفتُ دون أنْ أُعكِّرَ عليه ولا على أَهْلِ مَدينَتِه صَفوهم .

فقال المماليك :

سمعاً وطاعة

ثم نزَلوا وتوجَّهوا إلى بابِ المدينة ، ونادَوْا على حُرّاسِه أنْ يَفتَحُوا لهمُ الباب ، فَعرفَ الُحرّاسُ أنهم جاءوا يَبغُون تقديمَ رِسالةٍ ، فسألوهم :

مَن أنتم ؟ وما شأنُكم ؟

قال المماليك :

نحن رُسُل الملكِ سيف الملوك ، نبغي مقابلةِ مليككم .

ففتحَ لهم الْحُرّاسُ البابَ ، وصحِبوهم إلى مليكهم ، وكان اسمُه فَغْفور شاه ، فسألهم عن أمرِهم ، فأخبَروه برسالةِ سيف الملوكِ إليه . فلما عَلِمَ الملكُ فَغفُور شاه أن هذه السفنَ القادمةَ إلى ميناء مدينتِه للملكِ سيف الملوك ابنِ صديقِه الملكِ صفوان ؛ أمَرَ بخَلعِ الخِلَعِ على الرُّسُل ، وتجهيزِ الضِّيافات ، وتزيين المدينة ، ثم خرجَ بنفسِه مع كِبارِ رجالِ دولته لاستقبالِ القادمِ والترحيبِ به .

ولما تقابلَ الملكُ فغفورُ شاه بالملكِ سيف الملوكِ رحَّبَ به وعانقهُ ، وسألهُ عن حال والدِه ، ثم صحِبهُ هو ووَزيرَه ساعِدًا إلى داخلِ المدينة .

وكانتِ المدينةُ قد زُيِّنت على عجَلٍ احتفاءً بالقادم ، وقوبلَ سيفُ الملوكِ فيها بدقِّ الطُّبول وهُتافاتِ الترحيب .

ومرّت الأيامُ وسيفُ الملوكِ وساعِدٌ في ضيافةِ الملكِ فَغفور شاه ، والملكُ في كلِّ يومٍ يَزيدُ في ترحيبِه وحَفاوَتِه بهما ، ويَصْحبُهما لمشاهدةِ مَدينتِه، ويَخرجُ معهما للطَّوافِ بأرْجاءِ بلادِه : يُريهما معالمَها ومشاهدَها ، إلى أن سألَ الملكُ فغفورُ شاه سيفَ الملوك ذاتَ يومٍ :

يا بنَ أخي ؛ كيفَ رأيتَ حالةَ بلادي ؟ وهلْ أعجبتك ؟

فأجابه سيفُ الملوك : إنَّ بلادَكم بلادٌ عظيمةٌ بفضلِ توجيهِكم ، وعدلِكم في حُكمِكم ، وحُسْنِ سياستِكم . فشَكر فغفورُ شاه

لسيفِ الملوكِ ثناءه عليه وعلى بلادِه ، وقال له وهو يَهَشُّ باسماً :

إنك يا بنَ أخى ما جئتَ لِمُجَرّدِ مُشاهدةِ بلادِى ، والتفرُّجِ على معالِمها ؛ عرِّفنى سببَ مجيئِك لأقْضيه لك بإذْن الله !

قال سيفُ الملوكِ :

أصبتَ أيها الملكُ ، فما جاءنى إلى بلدِك إلَّا سببٌ عجيبٌ غريبٌ !

قال فغفورُ شاه :

قُصَّ علىَّ قِصَّتَك ، واكْشِفْ لِى عن خَبَرِك .

فَقَصَّ سيفُ الملوكِ على فَغفور شاه قِصَّتَه مع صُورةِ بديعةِ الجمال ، وكيف وقعَ فى حُبِّها ، وعرَّفَه بأنه ما جاء إلَّا للبَحْثِ عمَّا يوصِّلُه إليها .

واستمعَ فغفورُ شاه إلى حديثِ سيفِ الملوك بدهْشةٍ وعَجَبٍ ، ثم قال له :

لا عليك يا وَلدى ! ! سنستدعِى لك جميعَ الرَّحَّالة الذين ببلادِنا ليُنبئونا عمَّا تَطلُب .

ونفَّذ فغفورُ شاه ما وَعدَ سيفَ الملوك به ، فظلَّ قَصرُه لعِدَّةِ أيامٍ مَحَظًّا لجماعاتٍ مختلفةٍ من النَّاسِ يَفِدون إليه حيثُ يسألون عن مَطلَبِ سيفِ الملوكِ فيُجيبون بأنهم ما سَمِعوا به ولا عرَفوه .

وتحيَّر سيفُ الملوكِ فى أمْرِه ، وَيئِسَ من إمكانِ العُثورِ على ما يُريدُ ببلادِ الصِّين ، فعَوَّلَ على السفرِ إلى بلادٍ أُخرى . حينئذٍ أشار عليه كبيرٌ من بحَّارتِه بقوله :

إنْ أردْتَ أن تعلمَ شيئاً يا مولاى عن المدينةِ والبُستان اللّذين تسألُ عنهما فعليك بالجُزُرِ التى تقعُ جَنوبِى الهند فإن فيها كلَّ عجيبٍ وغريبٍ .

فأعجبَ سيفُ الملوكِ بهذه الفِكرة ، وعزَم على السَّفرِ إلى هذه الجُزُرِ ، فودَّع الملكَ فغفورَ شاه ، وشَكَره على حُسنِ ضيافتِه ، وجميلِ كَرمِه ، وصَعد هو ورجالُه إلى السُّفن ، فسارتْ بهم على بركةِ اللهِ بعد أن زوَّدَهم الملكُ فَغفورُ شاه بالكثيرِ منْ خَيراتِ بلادِه .

وظلت السفنُ تسيرُ بهمْ ، والريحُ رُخاء عدَّة أيام ، وفجأة تلبَّدَ الجوُّ من حولها فعَصَفت العواصف ، وتعالت أمواجُ البحر ، وهَطَلت الأمطار بقوَّة وشدَّة ، فصارتْ السفنُ كالكراتِ بين أمواجه ، تقذفها وتتلقَّاها حتى أفلتَ زمامها من يد بحّارتها ، فلمْ يعودُوا قادرين على توجيهها الوجهة الصحيحة ، فتركوها تسيرُ مع قذفات الموْج ، وقد فوَّضوا أمرهم إلى الله .

وسارتِ السفنُ فى عرضِ البحر تتخبَّط فى ضلال ، ورجالُها فى انتظار هدوء هذه العاصفة الشديدة ، ليحاولوا العودَة بسُفُنهم إلى الطريق الصحيح ؛ ولكنَّ العاصفة لم تهدأ عنهم ، وأمواج البحر لم ترحمهم ، فقد ازدادَ عصفُ العاصفةِ شدَّة ، وازْدادتْ أمواجُ البحر ارتفاعًا .

ثم لم يمضِ على ذلك غيرُ وقتٍ قصير حتى كان عصفُ الرِّياح وشدَّة الأمواج تضربُ السفن بعضها ببعض ، فتُكسِّرها وتحطِّمها . . وسادَ

الهرْج والمرج رجال السفن ، وأدرك ربّانوها ألّا نجاةَ لهم ما داموا بها ، فأمروا بإنزال الزوارق والمراكب الصّغيرة ، ووضع ما تيسّر من طعام وشراب فيها .

فَصَدع المّلاحُون بالأمر ، ونفّذوه على عَجَل ؛ وما هى إلّا برهةٌ حتى كان الجميعُ قد غادَروا سُــفُنهم إلى المراكب والزوَارق الصّغيرة ، ينشدون النجاة فيها من قوّة العاصفة وغضب البحر ، ولكن الأمواجَ لم ترحَم أيضاً هذه القوارب الصغيرة ، بل راحَتْ تطيحُ بها ، وتُمرْجحها يميناً وشمالًا ، وتُبعثِرُها هُنا وهُناك .

وأتَتْ موْجَة جبّارة عالية نحو القارب الذى يركب فيه سيفِ الملوك مع بعض مماليكه ، وحملَتْ القارب وارتفعت به كالجبل الشاهق ، وقد أغمضَ مَنْ فيه أعيُنهم انتظارًا للنهايةِ الرهيبة التى ستحل بهم ، والمصير المؤلم الذى ينتظرهم .

ومرّت لحظةٌ مُرَوِّعة ، ثم فتَحَ ركابُ القــارب أعينهم فإذا بهم لا يزالون فى قاربهم يترجّح بهم فوق رءوس الأمواج ، ونظر سيف الملوك حوله يبحثُ عن باقى القوارب التى تحمل رجاله فلم تقَع عينهُ على واحدٍ منها ، فسأل رِفاقه جزِعًا :

أين قوارب الرِّجال ؟ ! وأين القارب الذى به أخى ساعد ؟ !

فأجابه من معه من الرِّجال :

يا مَلكَ الزّمان ؛ عِلمُ هذا عند الله ، فلا ندرى إنْ كانت

الأمواجُ قد فرّقتْ بيننا وبين بقيّـةِ القوارب ، أو أنها قد أغرقتها وابتلعتْ من فيها

وكاد سيفُ الملوك أن يُصْعقَ ، فقد عزَّ عليه فِرَاقُ رجاله على هذه الصُّورة، وهالَهُ ما صاروا إليه جميعاً من مصير ، فألقى برأسِه بين يدَيه ، وخَيَّمتْ على وجهه سَحابةٌ كثيفةٌ من الكآبة والحزن والتشاؤُم .

وأخذ رجالُ سيفِ الملوك يُوَاسُونه وَيشجّعونه وهم يقولون :

يا مولانا ؛ ليس لنا إلّا الصَّبر على ما حكم اللهُ به علينا ، وعسى أنْ يُفرِّج الله عنَّا الكرب الذى نحن فيه .

ولم يَمضِ على هـذا وقتٌ طويلٌ حتى سكنت العاصفةُ ، وهدأت الأمواجُ ، وأخذ قاربُ سيفِ الملوك ومَن معه يسيرُ فوقَ المـاء كيفما تَدْفعه الريحُ الرُّخاء ، وتُسَيِّرُه الأمواجُ الخفيفة .

وسارَ القاربُ يضربُ فى عرْضِ البحر لا يعرفُ مَنْ فيه إلى أىِّ وجهٍ يوجِّهونه ، ولا إلى أىِّ ناحيةٍ يَقودُونه ، فتركوهُ يسيرُ حيثما تَدْفعهُ الأمواجُ بهم ، وقد فوَّضوا أمْرَهم إلى الله ، وتركوا أنفسهم تحتَ رحمةِ الأقدار

وأحسَّ مَنْ بالمركب العَطش والجوع ، فبَحَثوا فى قاعِه عمّا كانوا قد وضعوهُ فيه من طعامٍ وشرابٍ ، ثم أخرجوه وقدَّموا منهُ إلى سيفِ الملوك ، ودَعَوْه إلى الأكل والشُّرب ، فأكَلَ وشَرِب ، وأكَلَ مَنْ مَعهُ وشربوا وهُم يَحمدونَ الله ويشكرونَهُ على ما أتاهُم به ، ثم نامَ

نَفَرٌ منهم ، وَبَقِيَ نفرٌ مُستيقِظاً يرقب ما قد يَلوحُ لهم فى الأُفق من أسباب النجاة .

وعَرَّت أيامٌ وسيفُ الملوكِ ومَنْ معه بالزّورق على تلك الحال :

يتناوَبُونَ النَّوم والحراسَة حتى نفِدَ منهم الزّاد دُون أن تبدو أمامهم بارقة أملٍ ، أو يظهرُ ما يدلُّ على أنهم قد قاربُوا أرضاً ، أو أشْرفوا على يابسة .

واشتدَّ بهم العطش ، وقرَصتْ بطونَهُمْ آلام الجوع ، وزقزَقَتْ عصافيرها ، ثم ابتدأَتْ قُوَاهُم تخُورُ شيئاً فشيئاً ، ويتساقطون فى قاع القارب ضَعفاً وإعياء .

وفجأة .. لاحَ أمامهم الأمل براقاً باسماً فى أشجارٍ زاهية خضراء ، تَلوحُ لهم فى جَزيرةٍ وسَط الماء .. !

وكان لهذا المنظر فى نفسِ سيف الملوك ورِفاقه فعلُ السِّحْر ، فما لبثَ الرجالُ أن دَبَّ النشاط بأجسامهم ، وانتعشتْ نفوسُهم ، ونهضوا يتطلّعونَ إلى أسباب الحيـــاة التى بَدَتْ لهم فى خُضرة الجزيرة ، حُلْوَةً زاهرةً .

ووجَّه الرجالُ القارب نحو الجزيرة ، ولم يمضِ إلّا القليل حتى كانت أقدامهم تَطأ أرضها وهُم فَرِحونَ مَسرورون .

وقال سيف الملوكِ لِرَجلٍ من مماليكه :

ابْقَ بجانب القارب حتى نستكشف الجزيرة ونعودَ إليك .

فقال الرَّجل :

سمعًا وطاعةً .

وظلَّ الرجل بجانب الزَّوْرق ، وتفرَّق باقى الرِّجال فى أنحاء الجزيرة يستكشفونَها ويبحثون بين أشجارها عَن الثِّمارِ الطيِّبة .

ووَجدوا من هذه الثِّمار شيئًا كثيرًا . . ! وَجدوا ثِمارًا مُتنوعةً ناضجة ووَجدوا فاكهةً لذيذة دانيةَ القُطوفِ ، ووَجدوا جَداول يَجرى بها الماء رَقراقًا صافيًا عَذبًا . . ! وانكب المماليك على وُجوههم يعُبُّون الماء يُطفئون ظمَأهم وأسرعوا إلى الثمارِ يلتهمونها بنَهَمٍ ولَذَّة ! وحمل بعضهم إلى حارسِ القارِب ما أطْفأ ظمأه ، وسدَّ جَوْعته ، وأشبعَ بطنه ، ثم تفرقوا فى أنحاء الجزيرة يتفقَّدونها لعلهم يستطيعون أن يأْوُوا إليها ، ويقيموا بها ، حتى يُهيئَ الله لهم منها فرجًا .

وَبينما أحد المماليك يسير بين الأشجار وهو يَتفرَّج عليها ، ويَعجبُ من كثرتِها والْتفافِ أغصانها ، ويَتلهَّى بقطف بعضِ ثمارِها — سمع صوْتًا يناديه قائلا :

يا هٰذا ؛ اترك هذه الثمارَ غيرَ الناضجة ، وتعال هُنا أُطعِمك ثِمارًا ناضجةً شهيّة لذيذة . .

فالْتفت المملوكُ إلى مَصدر الصوْتِ ، فوَجَد رجُلا طويلَ الوجْه ، أبيضَ اللوْن أشيبَ اللِّحيةِ ؛ يكادُ يكون عاريًا ، يجلسُ على كَثِيبٍ من الأرض وهو ينظرُ نحوَه ويشيرُ إليه . فخطر ببالِه أنه رجُل من أصحابهم

الذين ظنوا أنهم غرِقوا ، وقد نجا من الغَرَق قبلَهم ؛ فأقبل عليْه هَشًّا بَشًّا مُهنِّئًا ، ولـكنْ ما كان أشدَّ دهشتَه حين قَرُب منه ، فإنه رأى ذلك الرجلَ قد هَمَّ واقفًا ثم وَثب فتعلَّقَ برقَبته ، واستَوَى فوْق أكتافِه جالسًا وهو يُقهقِه ضاحكًا يقول :

سِر بى !! فما بقِىَ لك منِّى خَلاص ، لقد صِرتَ رَكوبتى وحمارى منذ الآنَ !!

وشَعر المملوكُ بالألم من ثِقل الرجل فوقَ أكتافه ، وضاقَتْ أنفاسُه من نَتِن رائحته ، فحاول إزالَه والتخلُّصَ منه وهو يظُنُّ أن الرجلَ إنما يمْزَح معه ، ولـكن الرجل زاد فى التشبُّثِ به ، وفى تضييقِ الخناقِ عليه بساقَيه وهو يُعاوِد القول :

قلتُ لك ما بقِى لَك مِنى خَلاص .

وأدرك المملوكُ أنه إزاء مخلوقٍ عجيب ، أو وَحشٍ مخبولٍ ؛ فحاولَ جاهدًا أن يُلقِىَ بالرجُل من فوقِ أكتافِه إلى الأرض ، ولـكنَّ جهودَه فى سبيل ذلك ذهبَت أدراجَ الرياح ، فقد كانت قوَّةُ الرجُل أضعافَ قوَّته ، واشتد تصلُّبُ ساقَيْه حَول رقَبتِه كأنهما قد قُدَّا من صُلبٍ وفولاذ .

وأيقن المملوك ألا فَكاكَ له ولا مَهرب من كِتاف الرجل ، فصاح على إخْوانِه يستغيثُ بهم ويستنجد . . . ولـكن ، ما كان أشدَّ جزَعَه ، وأبلغَ خوْفه حين رأى جماعةً من إخوانِ الرجُلِ الذى يَركبُ أكتافَه وقد امتَلأ بهمُ المكانُ ، وهم يجولون بعُيونِهم هُنا وهناك ، كأنهم يبحثون

عن إخوانٍ له ليتَّخِذوهم رَكائبَ ومَطايا لهم وأدرك الملوكُ غَرَضَهم ، وعرَف أنَّ إخوانَه سيَكونُ مَصيرُهم مثلَ مصيرِه ؛ فصاح علَيهم ثانياً يُحذِّرُهم قائلاً :

اهرَبوا يا رِفاقِى ، وغادِروا هذه الجزيرة الملعونةَ سريعاً ، فإنَّ بها مخلوقاتٍ بَشِعة قد ركب أحدُهم على ظهرى ، وصيَّرَنى حِمارًا له .

وكان سيفُ الملوك ورفاقُه قد سمِعوا استغاثةَ المملوكِ واستِنجادَه بهم ، فأتوا إلى ناحيَة الصَّوتِ يستطلِعون الأمرَ ، ويستَجْلون الخبَرَ ؛ فإذا بصوت المملوك يحذِّرهم ويدعُوهم لِلهرَب ، وإذا برجالٍ ذوى هَيئةٍ غريبة قد أسرعوا نَحوَهم يبغُون القبْضَ عليهم ، فبادَروا بالفِرار نحوَ قارِبِهم ، حتى إذا ما أشرَفوا عليه صاحوا على الرجل الذى يحرسُه يهيبون به أنْ يُعدَّ الزَّوْرقَ لِركوبهم ، ثم سَرعانَ ما كانوا جميعاً بداخِله ، يُجدِّفون مُبتعِدين به عن الجزيرة ، وأصواتُ أهلِها تصلُ إلى سَمْعِهم مُناديةً عليهم :

تَعالوْا إلينا ، وأقيموا عِندَنا نُطعِمكم ونَسقيكم نَظيرَ أنْ تَكونوا حَميرًا لنا :

ولكنَّ رُكَّابَ القاربِ كانوا يبتعِدون بسرعة عن الجزيرة ، وهم يَحمدون الله على نجاتِهم من شرِّ ما كان ينتظِرُهم .

وسار القاربُ بركابِه يضربُ بهم فى عَرْض البحر من جَديد ، وعاد الجوع يَعضهم بِنابه ، وعاد العطشُ يُلهبُ حُلوقَهم ، ويجفِّف ألسنتَهم ، وهم يَدورون بعيُونهم فى مُحيطِ البحر يتطلَّعون هُنا وهُناك ، لعلَّ

أنظارَهم تقعُ على يابِسَة يَرْسون عليها أوْ سفينة تُنقِذهم مما هم فيه ؛ ولاح لهم أخيرًا ما كانوا يَنشُدُون ، ووَقعتْ أنظارُهم على جَزيرة خَضراء ، كثيرةِ الأشجار ، فاتَّجهوا إليها بفرَح ، وهم يأمُلون أنْ يجدوا بها ما يَبتغون .

ورسا القاربُ بشاطئ الجزيرة ، وصعدَ سيفُ الملوك ومَماليكه إليها يَتجوَّلون بأرجائها ، ويأكلون من ثِمارها ، ويشربون من مائها فى نَشْوةٍ وسرور .

وَبينما هم فى تَجْوَالِهم هذا لاحَ لهم على الأرض شَىءٌ يلمعُ فى ضَوْء الشمسِ مثلُ عمودِ الفِضَّة ، فاقتربوا منه يتبيَّنون ما هو ، فإذا به مخلوقٌ بَشِعُ المنظر ، طويل الرأس مشقوق العينين ، ذو أُذُنيْن كبيرَتين جدًّا ، ينام على إحْدَاهُما ، ويلتحفُ بالأخرى ، فتعجَّب سيفُ الملوكِ ومماليكه من أمر هذا المخلوق العجيب ، وأرادوا الانصرافَ خَوفًا من أن يَنتبهَ من نَوْمِه فيُصيبهم بأذًى ، ولكنَّ أحدَ المماليكِ تشجَّع واقترب من هذا المخلوقِ ، ورَكَله ركلةً جَعلتْه ينتبِه من نوْمه ويفتحُ عَينيْه المَشْقوقتين ، ثم يهُبُّ واقفًا ، ويختَطِف الذى ركله ، ويُسرع به إلى داخلِ الجزيرةَ ، وسمِعَ سيفُ الملوك ومماليكه صوتَ المملوكِ المخطوفِ وهُوَ يصيحُ علَيهم :

يا رفاق ، أسرعوا وانجوا بأنفُسِكم ، فقــد وقعْت فى يدِ غُول من أكلة لحوم البشَر وله هُنا رِفاقٌ كثيرون يَوَدُّون أن يُقطِّعونى إرْبًا إرْبًا.

فأسرعوا إلى قاربهم يضربون به في عرض البحر قبل أن يكون مصيرهم كمصير رفيقهم وهم آسفون متألمون لما أصابه .

وسار القارب يشق طريقه بين الأمواج على غير هدًى حتى ظهر لركابه قمة جبل تبدو لهم على بعد ، فجدوا في توجيه القارب إلى ناحيتها ، فإذا هم أمام جبل عال منحدر الصخور ، تبدو بسفحه أشجار مثمرة . فأسرعوا إلى إرساء القارب على شاطئه وصعدوا بين منحدراته إلى حيث الأشجار التي تحمل الفاكهة فأكلوا منها ما يشتهون .

وبينما هم يأكلون متلذذين فرحين إذ بجماعة من زنوج سود يبلغ طول الواحد منهم عدة أذرع ، وتطل من أفواههم أنياب كأنياب الفيل ، يطلون عليهم برءوسهم من بين الأشجار ، وارتعب القوم ، وهموا إلى قاربهم من جديد ، ولكن الزنوج كانت خطواتهم أسرع من جري هؤلاء ، فسرعان ما أمسكوا بهم بين أيديهم كأنهم أفراخ صغيرة ، وحملوهم ، وساروا بهم إلى ما وراء الجبل ، فإذا بشخص جالس فوق صخرة مفروشة بلباد أسود ، ومن حوله وقف زنوج آخرون كأنهم حاشية أو خدم له ، وقال الزنوج الذين يحملون سيف الملوك ورفاقه لهذا الجالس :

يا ملكنا ؛ لقد وجدنا هذه الطيور بين الأشجار فقبضنا عليها وجئنا بها .

فقال لهم ملكهم :

إذَنْ ، اذْبَحُوا لى اثنين مِنْها فَإنِّى جَائِع .

وسُرْعَانَ مَا نَفَّذَ الزُّنوجُ أمرَ الملكِ ، وسُرْعَانَ مَا كَانَ أَمَامَ الملكِ مَمْلُوكَان قد فُسِّخَا وَقُطِّعَا ، فأكلَ منهما حتَّى اكتفَى ، وتركَ بقيتَهما لِرجَاله .

ورأى سيفُ الملوكِ ورفاقُه ما حلّ برفيقَيْهِما ، فجَزِعَتْ نُفُوسُهم ، وذابَتْ أَفئِدتُهم حسرةً وكمدًا ، وأدرَكُوا أن مَصِيرَهم سيَكونُ كمصيرِ المملوكَيْن اللّذين ذُبِحا ، وأخذ سيفُ الملوكِ يتأوَّه وينْشُد الأشْعارَ الحزينةَ يرثى بها نفسَه ورجالَه ويتحَسَّر على مآلِهم ومآلِه . ومَلكُ الزُّنوج ينظرُ إليْهِم مُبتَسِماً معجَبًا بأصْوَاتهم ، مَسْرُورًا منْ تَرتيبِ أنغَامِها وانسجامِها ، ثم قال لرِجَاله :

إنّ لِهذِه الطيُورِ أصواتًا جَمِيلةً ، فلا تَذْبحُوهَا وَضَعُوهَا فى أقفَاصٍ لِنستَمْتِعْ بأنغامِها .

فَأَتَى الرِّجَالُ بأقفاصٍ وَوَضَعُوا فى كلّ واحدٍ منها رَجُلًا ، وعلَّقُوهَا فوقَ رأسِ الملكِ لِيَسْتَمِعَ لأصْوَاتها ، ويَسْتَمْتِعَ بأنغَامِها ؛ وصَاروا يأتُونَ لَهُمْ بِالطّعَامِ والشَّراب وظلّ سيفُ الملوكِ ورجالُه محبُوسِين داخلَ الأقفَاصِ بَائِسِين مَحْزُونِين ، يُغَنُّونَ أحيانًا الأغانى الحزينة يندُبون بها حظَّهم ، ويَشْكُون زمَانَهم ، وأحيانًا يكلّم بعضُهم بَعْضًا ، والملكُ يُنصِتُ إليْهم وهُوَ فرِحٌ جَذْلَانُ بما يَسْمَعُ منهم .

ومَرَّتْ الأيامُ وانقضَت اللّيَالِى عَلَى سيفِ المُلُوكِ ورفاقِه وهُم فى حَالِهم

هٰذِهِ ، وكَانَ لملكِ الزُّنُوجِ ابنةٌ تقيم فى جَزيرةٍ أُخرَى . عَلِمَتْ أنَّ أَبَاهَا عندَه طيورٌ تُغَرِّدُ بِصَوْتٍ جَميلٍ ، فأَرْسَلَت إلى أَبيها رَسُولًا يطالبُ منه أن يُرْسِلَ إِلَيْها بعضَ هٰذِهِ الطيُور لتتَفرَّجَ علَيْها ، وتَستَمِعَ إِلَيْها ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْها أَبُوها أَربعةً منها بأقفَاصِها كَانَ مِنْ بَينِها سيفُ الملوك .

ومَا إنْ وَقَعَتْ عيْناَ ابنةِ الملكِ عَلَى سيف المُلوكِ ورفاقهِ حتَّى عَلِمَتْ أَنَّهم لَبِسُوا بِطيُورٍ ، وإنَّمَا هُمْ نوعٌ من الرِّجَالِ كَانَ البحرُ يقذِفُ إلى جَزِيرَتها بِأَمْثَالِهِم بينَ حِينٍ وَحِينٍ ، وَلٰـكِنَّها أَمَرتْ أَتبَاعَهَا أَنْ يُعَلِّقُوا الأقفَاصَ بِجدارٍ فوقَ رأسِها ، وأخذَتْ هِيَ وأَتباعُها وتَابِعاَتها يُنْصِتُون إلى أصواتِ سَيْفِ المُلوكِ ومَمَاليكه بِلَذَّةٍ وسُرُور .

وَمَرَّتْ الأيامُ وكَانَتِ ابنةُ الملكِ قد لحظت جَمالَ سيفِ المُلوك وحسنَه فأَحَبَّتْهُ وصارَتْ تَقِف السَّاعاتِ الطَّويلَةَ أمامَ قفَصِهِ تُداعِبُه وتَتَوَدَّدُ إِلَيْه ، ولٰـكنَّ سيف المُلوك كَانَ فى شَاغِلٍ عنْها بِمُصَابِه وهُمُومِهِ فعَزَتْ ابنةُ الملكِ نُفُورَه مِنها لِضيقهِ وَحَبْسِه فأَمَرتْ بِإطلاقِ سَرَاحِه وسَرَاحِ رِفاقِه

ومرَّتْ أيامٌ أُخر وسيفُ المُلُوك ومماليكه يَرُوحُون ويَجيئُون بِقَصْرِ ابنةِ الملكِ لا يَعْتَرِضُ طَرِيقَهم مُعْتَرِض ، ولا يُصيبُهم أَحَدٌ بسُوء ؛ فالكلُّ يعرِفونَ أَنهم طُيُورٌ خَاصَّةٌ بِبنْتِ الملك .

وظَلَّتْ بنتُ الملكِ عَلَى تَوَدُّدِهَا ومُلَاطَفَتِها لِسيفِ المُلوكِ زَمناً ، ثمَّ أفهَمَتْهُ أَنَّها قد أَحَبَّتْه ، وتُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ زَوْجاً لها ، وتجعل منهُ رَئِيساً

عَلَى الجزيرة بِمَا فِيهما من زُنوجٍ وغِيلَان ؛ ولكنَّ سيفَ المُلُوكِ صَدَّ عن ذلك وأفهمها أَنَّهُ مشغُولُ القلبِ والخَاطِرِ بغيرِها .

فغضبَت أبنةُ الملكِ لِذلكَ أشدَّ الغضَب، وسَخِطَتْ على سيفِ المُلُوك ورفاقِه أشدَّ السَّخط ، وأمَرَت بطَرْدِهِمِ مِن القصْرِ إلى حيثُ يجمعُون الحطَبَ كلَّ يومٍ من الغَابات البعيدة ، ويأتونَ بهِ إلى مَطبخِ قصرِها ، وهى تأمُلُ مِنْ وَرَاء ذلكَ أَنْ يَرْجِعَ سيفُ المُلُوكِ عن رأيه وعِنَادِه ، وينزلَ على رَغبتِها .

ومرَّ وقتٌ طويلٌ على سيفِ المُلوكِ ومَماليكه الثَّلاثةِ، وهُمْ يخرجُون كلَّ يومٍ إلى الغَابَاتِ حيثُ يقضُون سحابةَ النَّهارِ فى جمعِ الحطَبِ ، ثم يعُودُون بهِ إلى مَطبخِ بنتِ الملكِ فى آخرِ النَّهارِ .

وبينما هُمْ فى الغَابَةِ ذاتَ يومٍ كعَادَتهم زَادَتِ الأشجَانُ بنفْسِ سيفِ المُلوكِ، وَعَزَّ عليهِ مَا صَارَ إليْه حَالُه ، وتذَكَّرَ أبَاه وأُمَّهُ وبَلَدَه ، وحَنَّ لأخِيه وَوَزيرِهِ سَاعِدِ الَّذِى تَرَبَّى مَعَهُ ، فخَانَتْهُ شجَاعَتُهُ ، وضَعُفَتْ عَزِيمَتُه ، وفاضَتْ عينُه بالعَبَراتِ وظَلَّ يَبْكِى وَيَبْكِى ، ومَماليكُهُ مِنْ حَوْلِهِ يُوَاسُونَه ويُرَفِّهُونَ عَنه ويَقُولُون لَهُ :

يا مَلِكَ الزَّمَانِ ؛ إلى مَتَى وَنحْنُ نَبكِى على مَا قُسِمَ لَنَا ، إنَّ البُكاءَ لَنْ يُفِيدَنَا شَيئًا ، وَهُوَ أَمرٌ لَا يَلِيقُ بالرِّجَالِ فضْلًا عن المُلوك وأبناء المُلوكِ ؛ وليسَ لَنا إلَّا الصبرُ على مَا ابتُلِينَا بهِ حتَّى يُفرِّجَ اللهُ عنَّا .

قال سيفُ المُلوكِ :

لا بُدَّ أَنْ نَحْتَالَ بِحيلَةٍ تُخَلِّصُنَا مِمَّا نَحنُ فِيه ، ونَخْرجُ بها مِن هَذِهِ الجزِيرَة المَلْعُونَة .

قالُوا :

وما العملُ ؟ !

قال :

إنى أُفَكِّرُ فى أَنْ نَصْنَعَ لنَا فُلْكًا من الأخْشَاب الطَّوِيلَة الَّتِى نَقْطَعُهَا ، ونُوَثِّقُ بعضها إلى بَعْضٍ بحبَال نفتِلُها من لِيف الشَّجرِ ، ومتَى تَمَّ صُنْعُ الفُلْكِ نَرْكَبُهُ ونَهْربُ عَلَيْه لَعَلَّ اللهَ يَسُوقُنَا إلى بَلَدٍ أمِين .

فقالَ المماليكُ :

نِعمَ الرَّأْىُ رَأْيُكَ يا مَوْلانَا .

ثم قامُوا مِنْ فورِهِمْ إلى الأشْجَارِ فقَطَعُوا مِنْهَا فُروعًا طوِيلَةً ، وإلى الأَلْيَافِ ففَتَلوهَا حِبَالًا وقَضَوْا بَقِيَّةَ النهارِ فى هَذَا العَمَلِ حَتَّى إذَا مَا أَمْسَى المَساءُ أَخْفَوا مَا صَنَعُوهُ خلف أَغْصَانِ الشَّجرَ ، ثم حَمَلُوا بعضَ الحطبِ وعَادُوا بِهِ إلى مطبخِ بنتِ الملكِ على مأْلُوفِ عَادَتِهم .

وظلَّ هَذَا حَالُهُم مُدةَ شهرٍ كَامِل حتَّى أَتَمُّوا صُنْعَ الفُلْكِ ، فصَارُوا يَحْمِلُونَ إلَيْهِ من الطَّعام ما يَصِلُ إلى أَيْدِيهم ، ويَقْطِفُون من الأشْجار الفاكِهةَ والثِّمار ويَضَعُونَهَا فِيه ، حَتَّى تجَمَّعَ لَهُمْ ما يَكْفِيهم بِضْعَةَ أَيَّامٍ . وفى غَفْلَةٍ من عُيُونِ أَهلِ الجزِيرة أَنْزَلُوا القَارِبَ إلى البَحْرِ وركبُوا فيهِ ، وأَخذُوا يُجَدِّفونَ بِهِمَّةٍ ونشَاطٍ مُبْتَعِدِين بِهِ عَنِ الجزِيرة .

ومَرَّتِ الأيَّامُ تِلْوَ الأيَّام وسيف المُلُوكِ ورفاقهُ فى عُرْضِ البَحْرِ دُونَ أَن تبدُو أَمامَهم بارقةُ أَمَلٍ ، أَو تَلُوح لَهُم أَرضٌ أَوسفِينَةٌ حتَّى فَرغ زَادُهم وشَرَابهم ، وبَاتُوا مُهَدَّدِين بالموتِ جُوعًا وعَطَشًا .

وبينَما هُمْ على حَالِهم هَذا مَمْدُودُونَ فوقَ ظَهرِ الفُلْك ضَعفًا وإعْياءً إذْ أَرْغَى البحرُ وأَزبَد ، وعَلَت الأمْوَاجُ وتَلَاطَمتْ ، وطَغَتْ على فُلْـكهم ، وكادَتْ أَنْ تُغرِقَهُم فَهبُّوا مَذْعُورِين فرأَوْا تماسِيح هَائِـلَةً قد أَحاطَتْ بالزَّوْرَق ، ورَفعَ اثنان مِنْها رأْسَيْهِما إلى الزَّوْرَق ، والتَقَما بفَمِهما أَرْجُلُ مَمْلُوكَيْن ثم سَحباهُما إلى الْبحْر .

وبقِى سيف المُلوكِ ومَمْلُوكٌ واحد بالزَّوْرَقِ فى حَالَةِ رُعْبٍ يرتعدان فَزَعًا .

وبينَما هُمَا ينظُرانِ إلى مَا حَوْلهُما بِعيُونٍ زَائِغَةٍ حَائِرَةٍ إذْ بالقاربِ يَنْسَاقُ بهم مَعَ دَفعاتِ الأمْوَاج إلى نَاحِيةِ جَبَلٍ عَالٍ مُرْتفعٍ بَدَا أَمَامَهم فجأَةً ، واقتَرَبَ القاربُ إلى نَاحِيَةِ الجبَلِ الَّذى ظَهرَ لَهُمَا وَاضِحًا شَامخًا على حَافَةِ جَزِيرَةٍ خَضْرَاء بَاسِقةِ الأشْجار .

وأَمَّلَ سيف المُلُوك وَرفيقُه أَنْ يَجِدَا فى هذه الجزِيرَة مَلَاذًا منْ شَرِّ الجوعِ والعَطَشِ ونَجاةً مِنْ خَطَرَ الأمْوَاجِ والتَّماسِيح . ولـكنَّ مَا قُدِّرَ لِرَفيقِ سَيف المُلُوك كَانَ نَفْسَ مَا قُدِّرَ لِرَفيقَيْهما السَّابقَيْن ، فما لَبِثَ المَمْلُوكَ أَنْ وَجَدَ نفسَه يُسْحَبُ إلى جَوْفِ البَحْرِ دُون أَن يَستَطِيعَ أَو يستطيع سيف المُلُوكِ مُقاوَمَةَ وَحْشِ البَحْرِ الَّذى قبَضَ عَلَيْهِ ثم فَتَكَ به .

وألقت الأمواجُ بالقارب الذى يعتليه سيفُ الملوك إلى صخور الجبل .

ومرَّ الوقتُ وسيفُ الملوكِ جالسٌ حيثُ قذفتْه الأمواجُ يُفكِّر فيما مرَّ بهِ من أهوال ، وفيما جازَه من متاعب ومَخاطِر، وكيفَ فقد سُفُنَهُ ورجالَهُ وسِلاحه وعتاده ، ثم كيفَ قذفتْ به الأمواجُ أخيرًا إلى هذا الجبلِ وحيدًا فريدًا ، ليسَ معهُ من يؤنِسُهُ أو يُذهِبُ وحشتَه ، فتمنَّى لوْ أنهُ ماتَ مِثلَ رِفاقِه ، وكان مآلهُ مثل مآلِهم ، ومصيرُه مثل مصيرهم .

وأخيرًا لم يجدْ سيفُ الملوكِ بُدًّا من أن ينهضَ ليستكشِفَ هذه الجزيرةَ التى قذفتْ به الأقدارُ إليها ، ويتعرفَ على ما يوجد خلفَ هذا الجبلِ الشَّامِخ ، فقامَ يُجاهِد فى اعْتلاء صُخور الشاطئ وتسلُّقِ الأحجار حتى انتهى إلى سفحِ الجبلِ فإذا هو مُنبسِط فسيحٌ به من الأشجار ما تُسَرُّ لمنظره العينُ ، ومن الثِّمار كلُّ ما تَشْتَهيهِ النفس ، فأقبل على الأشجار يأكلُ من ثمرها ما يمسكُ رَمَقه ، ويُعينُه على أمره .

ثم أخذَ سيفُ الملوكِ يتَسَلَّقُ الجبلَ آمِلًا أن يَجِدَ وراءهُ مدينةً يدخُلها أو ناسًا يَستأنِسُ بهم ، وبعْدَ جُهْدٍ جهيد وصلَ إلى قمتِه ، ومدَّ بصرَه ينظرُ إلى ما فى الناحِيةِ الأخرى منهُ فإذا هىَ أشجارٌ خضراء ملتفَّةٌ تلمعُ بينها قنواتُ الماء تجرى كأنها سبائكُ الفِضَّة .

ولم يتوانَ سيفُ الملوكِ فى أن يهبطَ إلى الناحيةِ الأخرَى ليجولَ بين أشجارِها: وبينما هو فى تَجوالِهِ هذا يتفرّجُ على الأشجارِ ، ويقتطِفُ من ثمارِها ، ويَدُورُ بعيْنيه هنا وهناكَ إذ بهِ يلمَحُ عُيونًا لامِعةً تنظرُ إليه

من بين أغصانِ الأشجارِ فى عجب ودهشةٍ وتساؤل .

ودُهِشَ سيفُ الملوك ، ودبَّ الرعبُ فى قلبه ، وتسمّرتْ قدَماهُ بالأرْض وهُوَ يرى هذه العيُون تُلاحِظُه وترْقُبُه من الأمام ومن الخلْف .

ورأى أصحابُ العيون ما عليه سيفُ الملوكِ من حيرة وخوْف فأخذوا يغادرونَ أماكِنهم بين فُروع الأشْجارِ ، وينزلون إلى الأرضِ واحدًا بعد الآخر ، وإذ بسيفِ الملوكِ يرى نفسهُ وقد أحاطَ به عددٌ كبيرمن القِردةِ الكبيرة الحجْم ، الضخْمة الجسمِ ! ثم إذا بالقِرَدة قد اصْطفّتْ فجْأةً فى صَفٍّ طويل وسارت أمام سيفِ الملوك وأشارتْ إليه أن يتبعهَا ، فتبعها فى وَجَلٍ وهو لا يَدْرى إلى أىِّ مكانٍ تقودُه ، ولا ما الذى تنتوى أن تفعلَ معه !

وطالَ السيرُ بالقِرَدةِ ومن خلفها سيفُ الملوك حتى أشرفوا على بنيانٍ شامخٍ كأنه القلعةُ المحصّنةُ ، ثم اتَّجهَ القرَدةُ إلى بابِ هذه القلعةِ فدخلوها ، ودخلَ سيفُ الملوك من ورائهم فاجْتازُوا به طُرُقاتٍ ودهاليز ، حتى انتهوا إلى ساحة فسيحة قامتْ جوانبها على أعمدة من الرّخامِ والمرمرِ المُطَعَّم بالدُّرِّ والجوْهَر ! ! وعجِبَ سيفُ الملوك من وجود مثل هذه القلعةِ فى تلك الجزيرة ، ثم زادَ عجبهُ أن رأى سُكانها الذين خفُّوا لاستقبالِ القادمين من القِردةِ وهم قِردَةٌ مثلُهم !

وأوجَسَ سيفُ الملوك فى نفسه خيفة، وأيقنَ أن نهايتَه ستكون على أيدى هؤلاء القرود ، ولكنْ ما كان أشدَّ دهشتهُ وأكبر عجبَهُ حين

أشار له القرودُ بأن يدخلَ إلى إحدى القاعات ، وما إن دخلها حتى وجدها قاعةً فسيحةً قد اصطفّتْ على جوانبها جماعةٌ من القرود ، وفى صدرها جلسَ شابٌ ضخمٌ طويلُ القامةِ جميلُ الوجهِ ما إن رأى سيفَ الملوكِ حتى ابتسمَ مُرحِّباً به . ودعاهُ إلى الجُلوس بجانبه ثم سأله بلسانٍ فصيح قائلًا له :

ما اسْمُك ، ومن أيِّ البلاد أنت ؟ ولِمَ جئتَ إلى هنا ؟

فَأنِسَتْ نفسُ سيفِ الملوك إلى هذا الشّابِّ وأجابهُ قائلا :

اسمى سيفُ الملوك ، ولم آت إلى هُنا بخاطرى ، وإنما غادرتُ بلادى فى طلب بلادِ الصين ، ثم ساقَتْنى إلى هاهُنا الأقدار .

فدُهش الشابُ من قولِ سيفِ الملوك وقالَ له :

ما أبعد الصينَ من هُنا ! قُصَّ علىَّ قِصَّتَك ، وبيِّن لى حاجتك، ولا تُخْفِ عنِّى شيئاً .

وأخذ سيفُ الملوكِ يقصُّ على هذا الشابِّ قصتهُ من وقتِ أن غادرَ بلاده فى طلب بديعةِ الجمالِ إلى أن قذَفتْ به الأمواجُ إلى شاطِئ هذه الجزيرة . فلما فرغ قال له الشابُّ مُهَوِّناً عليه الأمر :

أيها الملكُ ، لا بأسَ عليكَ الآن ! ويكْفى ما جرى لك من الشدائد ، وما مرّ بك من الأحداث والأهوال ، فابْقَ معى أستأنِسُ بك حتى إذا ما مِتُّ صرتَ أنتَ ملِكًا بعدى على هذه الأرض ، وعلى هؤلاء القرود الذين لن يستأخِرُوا عن قضاء أىِّ مَطلبٍ لك .

فقال له سيفُ الملوك :

يا سيِّدى ! لا أستطيعُ أن أمكُثَ بمكانٍ حتى أصلَ إلى غرضى وأقضى حاجتى ، أو أموتَ دون ذلك .

فابتسمَ الشَّابُّ من قولِ سيفِ الملوك ، وقالَ له :

لا أقلَّ منْ أن تبقى معى بعضَ الوقتِ حتى تستريحَ مما جَرى لكَ .

ثم أشارَ الشابُّ إلى أحَد القُرودِ الواقفين إشارةً خاصَّةً بارحَ القرْدُ على أثرها مكانهُ وغادرَ القاعةَ ، ثم عادَ بعدَ بُرْهةٍ وخلْفَهُ جماعةٌ من القرود قد شَدّوا على أوساطِهم قِطعاً من النسيج تُشْبه الفُوَطَ .

وأخذوا من فورهم يُعِدُّونَ مائدةَ مَلِكِهم وسيْفِ الملوك ، ويحملون إليها صِحافَ الطعامِ المصنوعة من الذهب والفِضةِ ، والتى تحملُ ما لذَّ وطاب من الأطعمَة الشهيَّةِ . فلما فرَغوا من إعدادِها دعا ملكُ الجزيرة سيف الملوكِ إلى الطعام ، وأشار إلى القرودِ من أهل مجلسهِ وحُجَّابه أن يتَّخذوا مجالِسهم على المائدة ، بينما ظلّ من عليهم خِدْمةُ المائدة وقوفاً للخدْمَةِ وتلْبية طلباتِ الآكلين .

فلما فرغ الآكلونَ منْ تناوُلِ الطعامِ أتى هؤلاء القِردَةُ بأباريقِ ماء وطُسوتٍ من ذهبٍ ، وأخذُوا يَصُبُّونَ الماء للآكلينَ حتى فرَغُوا من غَسْلِ أيديهم ، ثم رفعوا المائدةَ وأتوا بآنيةٍ من البلُّورِ ، فى كلِّ إناء نوعٌ منَ الشرابِ ووضعوا بجانبها صفوفاً من النقل وأنواعاً من الفاكهةِ ، بينَما دخلتْ جماعةٌ أخرى من القرودِ تحملُ دُفوفاً ومزامير ، فأخذ فريق

منهم يُطبِّل ، وفريق يزمِّر ، وفريق يرقُص ، حتى إذا فرغوا قامتْ جماعةٌ أخرى بعرض ألعابٍ مُسَلِّية وحركاتٍ مُضحكةٍ .

وانقضى جزءٌ من الليل وقد سُرِّىَ عن سيفِ الملوكِ بعضُ ما به من همٍّ وكدَر وانتعشتْ روحُه ، وابتهجتْ نفسُه ، لما لَقِىَ من إكرامِ ملكِ الجزيرة ، ولِما شاهدهُ منْ مُسلِّيات ومُضحكاتٍ قامتْ بها القرود من أجْله .

ولما حان وقتُ النومِ دعا ملكُ الجزيرة سيفَ الملوكِ إلى النوم فى مَخْدَعِه ، وهناكَ نامَ سيفُ الملوكِ ملءَ جفونه على فراشٍ قد سَوَّتْهُ القردةُ وفرشَتْه أحسَن فرش ، فشعرَ براحةٍ لم يَشْعُرْ بمثْلِها مُنذُ ليالٍ كثيرة مضتْ .

وفى الصباح نهضَ سيفُ الملوكِ من نَوْمِه ، ودخلَ عليه ملكُ الجزيرة الشابُّ ودعاهُ إلى النظر من النافذة ، فأطلَّ منها إلى الخارج فرأى منظرًا عجبًا : رأى ساحةً فسيحةً مُنبسطةً ، وقد امتلأَت على سعتها بالقرود التى وقفتْ منتظمة فى صفوفٍ متراصَّةٍ لا تبلُغ العينُ مَداها ، فالتفتَ سيفُ الملوكِ إلى الملك الشَّابِّ وعجب ، وقال :

لماذا اجتمعت كلُّ هذه القرود فى هذه الساحة ؟ ! !

قال مَلِكُ الجزيرةِ :

هذه هى عادتهم فى مثل هـذا اليوم من كل أسبوع ! يحضرونَ من كل حدَب وصوْب ، ويقطعونَ المسافاتِ البعيدةَ التى بينَ مساكِنهمْ

وهذا المكان لكى يصطفوا أمام نافذتى ، فإذا ما أطللتُ عليهم من النافذة حيُّونى ، وانصرفوا إلى مساكنهم وأعمالهم .

قالَ الملكُ هذا ثمّ أطلّ برأسِه من النافِذَة ، وأشرفَ على جميع القِرَدةِ التى ما إنْ رأتْهُ حتى انحنت إلى الأرْضِ فقبّلتْها ثم انصرفتْ عائدَةً إلى مَساكِنِها وأعمالها .

أمَّا سيفُ الملوكِ فقد عجِبَ أشدّ العجبِ لأمرِ هـذا الشَّعبِ المنظَّم المخلِص الذى يدينُ بمثلِ هذه الطَّاعَة وهذا الوفاء لملكٍ ليسَ من جنسه ..!!

وانقضى على سيفِ الملوكِ وهو فى ضِيافَةِ ملكِ الجزيرة وشعبهِ من القُرُودِ شهرٌ ؛ وفى تمامِه أعربَ سيفُ الملوكِ عن رَغْبته فى تركِ بلادهم وراء غايته التى يَسْعى إليها . فودَّع ملكَ الجزيرةِ أحَرَّ وداع ، وسارَ وبرفقته نحوٌ من مائةِ قِرْد أرسلَهم ملكهم معهُ لتوْدِيعه حتى آخر حدودِ بلاده .

وعند حُدودِ بلادِ القرودِ ودَّع القِرَدةُ سيفَ الملوك ، وكَرُّوا راجعين .

أمَّا سيفُ الملوك فقدْ سار وَسار : يخترقُ الغابات ، ويجتازُ الفيافى ، ويَقطعُ القِفارَ ، حتى نَفِد منه زادُه الذى زوّده به مَلكُ القرود ، فصار يَقتاتُ بما يَلقاه فى الأراضى التى يمرُّ بها ؛ فتارَةً يأكلُ الفاكهةَ والثِّمار ، وتارةً يأكلُ الحشائشَ والطَّحالب ، وتارةً يَرتوى بالماء ، وتارةً لا يجدُ ما يبُلُّ به لسانَه ، ولا ما يُرطِّبُ به جَفافَ حَلْقِهِ .

ونَالَ التعبُ من سيفِ الملوك كلَّ مَنال ، وابتدأ النَّدَمُ يُساوِرُه

على تركه بلادَ القرود ، والضَّربِ وَحدَه فى هذه البيداء التى لا أوّلَ لها ولا آخِر ، والتى لم يُصادفه فيها إنسانٌ ولا حَيوان ، وفكّر فى أن يَكُرَّ راجعاً من حيثُ جاء .

عِندئذٍ بَدَا له شَبَحٌ أَسوَدُ يَلوحُ أمامَه عن بُعد ، فقال لنفسِه :

لنْ أعُودَ حتى أَتبيَّنَ كُنْهَ هذا الشَّبَحِ .

ثم سار بعزْمٍ قاصِدًا إلى ناحيته حتى إذا ما قاربه بانتْ له أعمدَةٌ وقِبابٌ سَوْداء ، فمادَ يُحدِّثُ نفسَه قائلاً :

ما هذا ؟ أهوَ مَدينةٌ سَوْداء ؟ !

ثم عاد يواصِلُ السَّيرَ ، وقد أَمَّل أن يجدَ هُناك خَبرًا يَستَدِلُّ به على أمرِه ، أو شيئاً يستعينُ به ، ويُخرجُه من هذا التِّيه الذى هو فيه .

ولكنْ ما كان أشَدَّ حَيْرَتَه وعجَبه حين وَصلَ إلى هــذا البُنيانِ الأسْودِ فإذا به قَصرٌ ضخْمٌ كبيرٌ يَرْبِضُ فوقَ صُخورٍ عاليةٍ تُشْرِفَ على البحرِ ، وليسَ بالقصرِ ما يَدُلُّ على أنَّ به ناساً ، أو مايُشيرُ إلى أنَّ به حياةً . . ! !

ودار سيفُ الملوكِ حوْلَ القصرِ حتى وَجَد له باباً كبيرًا نفَذ منه إلى الداخلِ ، فإذا به يجدُ نفسَه فى دِهليزٍ طويلٍ ليس به أحَد ، فاستعانَ باللهِ واجْتازَه إلى آخرِه ، فإذا هو فى دِهليزٍ آخر . وهكذا صار كلما اجْتاز دِهليزاً وجَد نفسَه فى دِهليزٍ آخر حتى عَدَّ فى اجتيازه هذا سبعةَ دهاليز ، وفى نَهايتِها وجَد أمامَه أبواباً ثلاثةً على أحدِها سِتارةٌ كبيرةٌ مُسدَلَةٌ ،

فتقدَّم من هذا الباب وأزاحَ السِّتارةَ ، ونفَذ منه فوجَد نفسَه فى إيوانٍ فسيحٍ قد فُرِشَتْ أرْضُه ببُسُطِ الحرير ، وفى صَدْرِه شىءٌ يَلمَعُ ، فرفعَ نظرَه إليه ، فإذا هو مِنَصَّة عاليةٌ من ذهَب قد اتكأَتْ على الوَسائدِ الموَشَّاةِ التى فُرِشَتْ بها فتاةٌ جميلةٌ ترفُلُ فى ثيابٍ كثيابِ الملوكِ ، وأمامَ هذه المِنَصَّةِ مُدَّتْ مائدةٌ كبيرةٌ حَوتْ كلَّ شَهىٍّ من الطعام .

ودُهشَ سيفُ الملوكِ مما رأى ، وأراد أن يتراجعَ ، ولكنّه تمالكَ نفسَه ، وتقدَّم من الفتاةِ ، وألْقَى عليها السلامَ ، وانتظَرَ : ماذا سيكونُ جوابُ الفتاةِ ؟ ! فإذا بها تَرُدُّ عليه السلامَ بِصَوْتٍ عَذْبٍ فَصيح . ثم تسألهُ قائلةً :

ياهذا ؛ أنتَ من الإنسِ ؛ أمْ من الجنّ ؟ ! ! وما اسْمُك ؟ ! !

فأجابها سيفُ الملوك :

أنا من الإنسِ ، واسمى سيفُ الملوك .

قالتْ وهى تُشيرُ إلى المائدة :

دونَكَ يا سيفَ الملوك الطّعامَ والشّرابَ ؛ فكُلْ ما تَشْتهى ، واشرَبْ ما تريد ، ثم حدِّثْنى حديثَك .

فأقبلَ سيفُ الملوكِ على الطعام —وكان جائعاً— فأكَلَ حتى شَبِعَ ، وشَرِبَ حتى رَوِى . ثم أشارتْ له الفتاةُ أنْ يجلسَ بالقُربِ منها ، فجلس حيثُ أشارتْ ؛ ثم قالت :

مَن أنتَ ؟ ! ومِن أين جئتَ ؟ !

قال لها :

أنا مَلِكٌ ابنُ مَلِك ، وقد جئتُ مِن بلادى وراءَ غايةٍ أبحثُ عنها ، وحديثى طويلٌ يَطولُ بيانُه وشَرْحُه .

قالت :

عرِّفْنى: ماغايَتُك ؟! وما سببُ مجيئِك إلى هذا المكانِ المنعزِلِ النَّائى؟!

قال سيفُ الملوك :

ألا عرِّفينى أنتِ أوّلاً لماذا أنتِ هُنا وَحدَكِ ؟! وما السِّرُّ فى ذلك ؟!

قالتْ :

إننى ما جئتُ إلى هُنا بخاطِرى ، فأنا بِنْتُ مَلِكٍ مِن مُلوكِ الهند اسمُه تاجُ الملوك واسمى دولةُ خاتون ، وكنتُ أعيشُ معَ أبى فى مَدينةٍ من مُدُنِ جزيرةِ سَرَنْديبَ ، ولأبى فيها قصرٌ شامِخ ، وبُستانٌ كبيرٌ نَضير . وبينما كنتُ ذاتَ يومٍ ألعبُ وأمْرَحُ مع لِداتى مِن بناتِ القَصْرِ فى حَوْضِ ماءٍ بالبُسْتانِ لم أشعُر إلا وشىءٌ مثلُ السَّحابِ قد اكْتَنَفنى ورفعَنى ثم طارَ بى إلى أعالى الجوّ ، فصرَخْتُ وبكَيْتُ ، فإذا بِصَوْتٍ يقولُ لى :

لا تخافى يا دولةَ خاتون ، وكونى مطمئنةَ القلْبِ ، هادئةً ، فلنْ يُصيبَكِ أذًى أو مكروه .

وبعد بُرْهةٍ نزلَ بى هذا الشىءُ إلى الأرضِ ، فإذا بى فى هذا القَصْرِ ، وإذا بهذا الذى حمَلَنى قد انقلبَ أمامى إلى شابٍّ جميلٍ مَليح ، حَسَنِ الثِّياب ، وقال لِى :

هلْ أُعرِّفُكِ بنفسى ؟

قلتُ له حانقةً باكية :

مَن أنت ؟ ولِمَ جئتَ بى إلى هذا المكان ؟!

قال :

أنا ابنُ الملكِ الأزْرق من مُلوك الجن ، وأبى يَسكن فى قلْعة القُلْزم ، وتحت يَدِه آلاف من الجن الطيَّارين والغوّاصين ، وقد تَصادفَ أنّى مَررْت فوقَ بستانِ أبيكِ ، فرأيتُكِ وأُعجبْتُ بك ، وأحْببْتك ؛ فجئت بِك إلى هُنا . وهذا هو سكَنى الخاص الذى لا يعلمُ به أحدٌ ، ولا يستطيع إنسانٌ الوُصولَ إليه ، فلا تُفكّرِى فى أهْلِك ، وروِّضى نفْسَكِ على أنَّك لن تَرَيْهِم بعد ذلك ، واعلمى أن بيْننا وبينهم ما لا طاقةَ لإنسانٍ باجتيازِه ، وها أنا أمامَك على استِعدادٍ لتلبيَةِ ما تطلُبين من مأكل وملْبسٍ ، ثم أتى لى بهذه المائدة وهُو يأتينى بكلّ صُنوفِ الأطعِمة ، ويَزورُنى بين حينٍ وحينٍ ؛ وهذا هُو خَبرى وسببُ وُجُودى هُنا . فما هو حديثُكَ ؟! وما هو خبرُكَ ؟!

قال سيفُ الملوك :

حقًّا ! ؟ إنّ حديثَك لَعجيبٌ ، وإنّ خبرَكِ لغريب ! ولكنّى أخاف أن أُحَدّثك حَديثى الطويل ، فيأتى الجنىّ ، فيَجِدنى معكِ !!

فقالت :

لا تخَفْ ؛ فإنه لم يُفارِقْنى إلا هذا الصباح ، ولنْ يأتى إلا بعدَ بضعةِ

أيامٍ ؛ فحدِّثني حديثَكَ وأنتَ مُطمئنُّ الخاطرِ ، هادئُ البالِ ، آمِنٌ على نفسِك .

فحدَّثها سيفُ الملوكِ حديثَه ، وقصَّ عليها ما لاقَى من الشدائدِ في سبيلِ البحثِ عنْ بَديعةِ الجمالِ . ولمّا فرغَ من حَديثِه كانت الدموعُ تجرِي على خدَّيْ دوْلةِ خاتون وكانت تُتَمْتِمُ قائلةً :

آه ! ! كيفَ أنتِ يا أختي يا بَديعةَ الجمالِ ؟ ! وكيفَ لمْ تَبحثي عني وتَعرفي خبري ؟ !

ودُهِشَ سيفُ الملوكِ مما سمِع ، وسألَ الفتاةَ قائلاً :

ماذا تقولين ؟ ! هلْ تعرفين بديعةَ الجمالِ ؟ ! وكيفَ تقولين إنَّها أختُكِ ، وأنتِ إنسيَّةٌ وهيَ جِنّيَّة ؟ ؟

قالت :

لِذلِكَ خبرٌ سأقصُّه عليْك . كانت أمُّ بديعةِ الجمالِ تنزِلُ يوماً هي وأعوانها بِبُستانِنا ، فأرادت الوَضْعَ ، فوضَعت بَديعةَ الجمالِ ؛ وكانت أُمِّي إذ ذاكَ تتنزَّه في البُستانِ فرأتْها أمُّ بديعةِ الجمالِ ، وتوسَّمت فيها الطِّيبةَ وحُبَّ الخيرِ ، فبعثَتْ إليها إحدَى صُوَيْحباتِها تطلُبُ منْها بعضَ الحاجاتِ اللازمةِ لِلوِلادةِ ، فأجابتْها والِدَتي إلى طلَبِها ، وذهبَتْ إليها ، ودَعتها إلى النُّزولِ عِندها ، وأخذتْ طِفلتَها بديعةَ الجمالِ فأرْضعَتها ؛ فشكرتْ أمُّ بديعةِ الجمالِ أمِّي على ما لاقتْ منها من إكرامٍ ، وصارتْ من ذلكَ الحينِ تأتي ومعَها ابنتُها بديعةُ الجمالِ لزيارةِ أمي كلَّ عامٍ . فلما

وُلدتُ أنا صارت بديعةُ الجمال أُخْتى فى الرَّضاع .

ثم تَنهَّدَت دوْلةُ خاتون وقالتْ :

آهِ يا سيفَ الملوك . . ! لو استَطَعْتُ أَنْ أَصلَ إلى بلادى لاحْتلْتُ لكَ حِيلةً تُبلِّغك مُرادَك ، وتَصِلُ بك إلى غايتِك . . ولكن ، هذا هُو عَينُ المحال . . !

فقال لها سيفُ الملوك :

قُومى مَعى ، وهيَّا بنا نَهرب من هُنا واللهُ معنا وَوليُّنا .

قالت بأسفٍ وحسْرَةٍ :

ليتَنا نستطيعُ ذلك ! ! والله إنَّنا لو سرْنا مَسيرة سنة لأَتى بنا هذا الملعون فى طَرْفَةِ عَيْن ، ثم يُهلِكنا ! !

قال سيف الملوك :

سأختبئُ له فى مكانٍ هُنا ، فإذا ما جاء غافلْته وخرجتُ عليه وقتلته .

قالت :

إنك لا تستطيعُ قتلَه حتى تَقْتُل بقيَّة رُوحه .

فسأل سيف الملوك :

وأيْنَ هى بقيةُ روحِه ؟ !

قالت :

إنَّه يحتفظ بها فى مكانٍ لا يستطيعُ أن يصل إليهِ أَحد .

قال :

وأينَ هو هذا المكان ؟ ! !

قالت :

لقد سألتهُ عنهُ مِرارًا فلمْ يرضَ أن يُخبرَني بِهِ ، وذَات يوم ألححْتُ عليه فى ذلك فغَضِب وقال لى :

لِمَ لا تزالينَ تسأليِنَنى عنْ روحى ؟ ! ! وما الذى تبتَغينَهُ من وراء ذلك ؟ ! !

فقلت له :

يا حاتم ؛ إنكَ صرتَ لى كلَّ شيءٍ فى الحياة ، فإنْ لم أُحافظ على حياتك فمن لى الآن من بعدك ؟ إننى أُريدُ أن أعرف مكانها ، حتى أستريح ويَطمَئنَّ قلبى .

عندئذٍ قالَ لى :

إنَّنى حين وُلدْتُ أخبرَ المنَجِّمون أبى أن هلاكَ روحى ستكونُ على يَد ملكٍ من مُلوكِ الإنس ، لِذَا احتَطْتُ أنا فوضَعتُ روحِى فى عُلبَةٍ ، ووضعْتُ العُلبة فى عُلبةٍ أخرى . وهكذا حتى وضعتها فى سَبْع عُلب ، ثم وضعْتُ هذه العُلبَ فى سَبْعة صَناديق ، ثم وضعت الصناديق فى طابقٍ من الرُّخام ، ووضعتُ طابقَ الرخام فى هذا الجانب من البحر المحيط ، ثم قال :

اجْعلى هذا سرًّا بَينى وَبينك .

فقلت له :

مِمَّن تخاف ؟! وهلْ يأتى إلى هُنا أحدٌ غيرُك ؟!! ثمَّ . . . وهل يستطيعُ إنسِىٌّ بلغَ ما بلغَ من قوَّةٍ أن يستخرِجَ هذا الطابقَ من الرُّخام ويستخرجَ منهُ روحك .

فقال :

إن ذلك فى إمكان الإنسىِّ الذى يحمل فى إصبعه خاتم سُليمانَ فعندما يضعُ هذا الشخصُ يده فوق سَطح الماء بالقرب من المكان الذى به طابقُ الرّخام ، ثم يقول :

بحقِّ هذه الأسماء التى على خاتَمِ سُليمانَ أن تظهرَ لنا روحُ فلان — يظهرُ طابقُ الرخامِ فى الحال ، فيأخذه هذا الشخصُ ، ويكسرُه ، ويكسِرُ الصناديقَ والعُلَبَ ويستخرجُ روحى فيخنقها، فأموت أنا فى الحال.

فقال سيفُ الملوك فى لهفة :

إذن ؛ أنا هو هَذا المِلكُ الذى بيدِه خاتَمُ سُليمانَ .

ثم مَدَّ يَدَهُ إلى دولةِ خاتون ، وأراها الخاتَم وهو يقول :

هيَّا بنا إلى هَذا المكان من البحرِ لنتبيَّن صِدق هذا الجِنِّى من كَذِبه ، وهل وضع روحَه حقيقةً فى هذه الناحيةِ ، أو كان كاذبًا فيما قال :

وفى الحال نهضتْ دولةُ خاتون وسارتْ هى وسيفُ الملوك حتى وصلتْ إلى المكان الذى عرّفها الجِنّى أنه قد وضع به كتلة الرخامِ التى بها روحه .



سيف الملوك يمد يده بخاتم سليمان فوق سطح الماء ليخرج التابوت

وهُناكَ وقفَتْ الفتاةُ على الشاطئ ، وغاص سَيفُ الملوك إلى وَسَطه في الماءِ ثم مدَّ يده بالخاتم على سطحِه ، وتمتم بالكلمات التي عرَّفته الفتاةُ إياها . فإذا البحرُ قد هاج وماج ، وتلاطمتْ أمواجُه ، وإذا بالأمواجِ قد قذفتْ بتابوت الرخام إلى الشاطئ . . !

وأسرَع سَيفُ الملوك والفتاةُ إلى التابوت يتحسَّسانِه بفرح ، وإن كان قلبُ الفتاة لم يَخْلُ من الخوْف والوَجَل .

ولكن لم يمض على ذلك إلَّا قليل حتى كان سيفُ الملوك قد هَشَّمَ كتلةَ الرُّخامِ وكَسرَ الصناديقَ والعُلَب ، وأخذَ منها روحَ ابنِ الملك الأزرق ، وعاد هُو والفتاةُ يقْصِدان موْضعَهُما بالقصر .

حينئذ رأيا — وهما في طريقهما إلى القصر — غَبرَةً هائلةً قد عَتَّمَتْ جَوَّ السماء ، وسمِعا صَوتاً يصرخُ في لهفةٍ وجزعٍ يقول :

أَبقِني يابنَ الملِك ولا تقتلْني ، واجعلْني عتيقاً لك ، فأُبْلِغَكَ كل ما تريدُ وأُنيلكَ كل ما تبغي .

فقالَتْ دولةُ خاتونَ لسيف الملوك :

هَذا هُو الجِنِّي قد جاء ، فلا تستمِعْ لما يقول ، ولا تصَدِّق قولَه ، وأسرِع بخنْقِ روحِه قبل أن يقتُلَنا .

حينئذٍ ضغطَ سيفُ الملوك بيده على روح الجِنِّي يخنقها ، فسقَط الجِنِّي إلى الأرضِ في الحال كومةً من رَماد أسود !

فقالَتْ دوْلةُ خاتون بفرح :

الحمدُ للهِ الّذى أنجانا مِنْ شَرّه ، والآنَ وقدْ ماتَ ، واسترحْنا منْه ، فماذا تفعل يا سيفَ الملوكِ كىْ تخرُج مِنْ هُنا ؟

فأجابها سيفُ الملوكِ :

اللهُ الّذى أنجانا يُعِينُنا ويُدبّرُنا ويُخلّصُنا مِمّا نحنُ فيه . . . إنّنى سأشرَعُ من فوْرى فى عملِ فُلْكٍ نركَبُ فيهِ لعلّ اللهَ يُسخّرُ لنا رِيحًا طيّبةً تقذِفُ بنا إلى بلدٍ أمينٍ .

ودخلَ سيفُ الملوكِ إلى القصْرِ فخلَعَ عدَدًا مِنْ أبْوابِه ، وكانتْ مصْنُوعةً مِنْ خشبِ العُودِ والصّنْدل ، ومَساميرُها مِنْ ذهَبٍ وفِضّةٍ ، ثمّ أخذَ يشُدُّ بعْضَها إلى بعْضٍ بحبالِ السّتائرِ المصْنُوعةِ مِن الحرِيرِ . ولم يمْضِ علَى ذلكَ إلّا قليلٌ حتّى تمّ لسيْفِ الملوكِ صُنْعُ الفُلْكِ المنْشُودِ ، ثمّ تعاونَ هُوَ والفتاةُ علَى إنْزالِهِ إلى البحْرِ ونقَلا إليْه مِنَ القصْرِ كلّ ما غَلا ثمنُه وخفّ حمْلُه مِنْ جَواهِرَ وذهَبٍ ولآلِئ وكُلّ ما بالقصْرِ مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ .

ثم ركِبا الفُلْكَ وأخذا فى التّجْديفِ ضارِبيْن فى عُرْضِ البحْرِ .

وقيّضَ اللهُ لهُما ريحًا طيّبةً ساقتْ الفُلْكَ بِهِما علَى ظهْرِ مِياهٍ هادِئةٍ ساكِنةٍ ومرّتْ عليْهما الأيّامُ واللّيالِى والشّهور . وهُما بمحلّهِما مِنَ الفُلْكِ لا تقعُ لهُما عيْنٌ علَى سفِينةٍ أوْ أرْضٍ ، ولا يريانِ إلا زُرْقةَ الماء وزُرْقةَ السّماء ، وظلّا كذلكَ حتّى نفِد زادُهما ، وكادا أنْ يُشْرِفا على الهلاكِ .

وبيْنما سيفُ الملوكِ نائمًا بالفُلْكِ ذاتَ ليْلةٍ ودوْلةُ خاتُون فى نوْبتِها فى

السَّهرَ والمُراقبَةِ ، إذْ سمِعَتْ أَصواتًا ، فالتفَتَتْ حوْلَها فإذَا الفُلْكُ قدْ دَخَلَ فيما يُشبِه المِيناء ، ورأتْ مِنْ حَوْلها مَرَاكِبَ رَاسِيةً ، وأشْرِعَةً قائمة ، فاستَطَارَهَا الفرَحُ وأسْرَعَت إلى سيفِ المُلوكِ تُنَبِّهُهُ مِن نَوْمِه قائلَةً لَهُ :

قُمْ يَا سَيْفَ المُلوكِ ، واسْتَفْسِرْ لنَا عَن اسْمِ هَذِهِ المَدِينَةِ الَّتى رَسَا بِنَا الفُلْكُ فى مِينَائِها .

فقَامَ سيف المُلوك فَرِحًا جَذِلا ، وقادَ الفُلْكَ إلى شَاطِئِ المِينَاء . ثم نَزَلَ منْهُ يَتَعَرَّفُ : إلى أىِّ بَلَدٍ سَاقَتْهُما المَقَادِيرُ ، فوَجَدَ رَجُلًا تَبْدُو عَلَيْهِ مَظاهِرُ الرِّياسَة يُصْدِرُ أَوَامِرَهُ إلى نَفرٍ مِنْ رِجَالِ البَحْرِيَّة فى عُنْفٍ وغَضَبٍ ، فتَقَدَّمَ منهُ وسَأَلَهُ قائلًا :

هَلْ لَكَ أَنْ تُعرِّفَنِي يَا سَيِّدى عَنِ اسْمِ هَذا المِينَاء ، وعَن اسْمِ هَذه المَدِينَة ، واسْمِ مَلِكِهَا ؟

فالْتَفَتَ إليْه الرَّجُل فى سُخْطٍ وقالَ لَه :

إذَا كنتَ لا تَعرِفُ شيئًا عَن المِينَاء والمَدِينَة وصَاحِبِهما — فما الَّذى أَتَى بِكَ إلى هُنا ؟ ! !

قالَ سيفُ المُلوكِ مُعْتَذِرًا :

لقد كنتُ فى سَفِينَةٍ وغَرِقَتْ ، فسَاقتْنِي الأقْدَار إلى هُنَا ، ومَا فى السُّؤَالِ مِنْ حرَجٍ ! !

فقالَ الرَّجُل :

هَذِهِ مدينَةٌ عِمَارِيَّةٌ ، وهَذا مِينَاءُ كَمِينِ البَحْرَيْنِ .

فلَمَّا عادَ سيفُ الملوكِ إلى دَوْلَةِ خاتون بِمَا قالَ الرَّجُل صَفَّقَتْ بِيَدَيْهَا طَرَبًا وقالت :

أَبْشِرْ يا سيفَ المُلوكِ ، فالفَرَجُ قريبٌ مِنَّا . إنَّ مَلِكَ هَذه المدينَةِ هُوَ عَمِّي عَالى المُلوكِ . اذهَبْ واسْتَفْسِر لَنا عَنْ خَبَرِه .

فعَادَ سيفُ المُلوكِ إلى رَئِيسِ البَحْرِيَّةِ فوَجَدَهُ لَا يَزَالُ بِمكانِهِ يُصْدِرُ أَوَامِرَهُ إلى رجَالِهِ ، فَسَأَلَهُ :

هَل الملكُ عَالى المُلوكِ مَلكُ هَذه المَدينَةِ بخَيرٍ ؟

فنَظَرَ الرجلُ إلى سيْفِ المُلوكِ نَظْرَةَ غضَبٍ وصَاحَ فيهِ قائلا :

يَا كَاذِب ؛ تَدَّعى أَنَّكَ لَا تَعرِفُ المدينَة ، ثم تَأْتى تَسْأَلُ عَمَّا جَرَى لِمَلِكِهَا عَالى المُلوكِ . . ! ! اغْرُب عَنْ وَجْهى وَإِلا . . .

وسمعَتْ دَوْلَةُ خَاتُونَ صُرَاخَ الرَّجُلِ وصياحَه ، فعَرَفَتْ فِيهِ رئيسَ بحَّارَةِ أبيها فنَادَتْ على سَيْفِ المُلوكِ وقالَتْ لَهُ :

قلْ لَهُ : أَيُّها الرئيسُ مُعينُ الدِّين ، تعالَ ، كَلِّم سَيِّدَتك . . ! !

فما كَادَ سيفُ المُلوكِ ينقلُ إلى الرَّجلِ كلامَ دولةِ خاتون، حتَّى استَشَاط غضَبًا ، وصاحَ على بحَّارَتِهِ قائلا :

نَاولُونى عصاً لِأُؤدِّب هذا الرجلَ الصَّفيقَ الوجهِ الَّذى يَسْخَرُ منَّا ، ويَدَّعى عَدَمَ معرفَتِهِ بشىء ثم يَأْتى ويُناديني باسمى !

ثم أَسْرَعَ خلف سيف الملوك يبغِى الإمساكَ بِه ، فطَالَعَه وجهُ دولةِ

خَاتون وهى وَاقِفَةٌ بحافَةِ الفُلْكِ تنتَظِر، فنَادَى على سيف المُلوك بقوله :

من مَعَك يَا هَذا ؟ ! !

فأَجَابَهُ سيف المُلوك :

سيدتُكَ دولةُ خاتون أَيُّها الرئيس ! !

فما سمِع الرجلُ اسمَ دولةِ خاتونَ وتحقَّق من وَجْهِها حتَّى كادَ أن يُغْمَى عليْه من فرطِ الفرَح والسُّرور . فلما تمالكَ نفسَه قالَ لِسيف المُلوك :

الحمدُ للهِ الَّذى رَدَّ لنَا سيدَتنَا دولةَ خاتُون ثانياً ؛ لقد كنتُ أطوفُ البِحار ، وأجوبُ البلادَ فى البَحْثِ عنها بأمْرِ وَالِدِها الملكِ تاج الملوك ؛ وسأذهَبُ الآنَ لأُبَشِّر عمَّها الملكَ عَالِىَ المُلوكِ ببُشْرَى العُثُورِ عَلَيْها .

ثم هَرْوَلَ الرَّجُلُ مُسرعاً ليزُفَّ إلى مَلكِ المدينَةِ نبأَ العُثُورِ على ابْنَةِ أخِيهِ المفقُودَةِ التى كَادَ أنْ يَستَولِىَ على أهْلِها اليأسُ فى إمكان العُثُور عَلَيْها .

وفَرِحَ الملكُ عالى الملوك بنَبأِ العُثُور على ابْنَةِ أخيهِ فَرَحًا شديدًا ، وخلَعَ على الرَّئيس مُعينِ الدِّين الَّذى بَشَّرَهُ بِرُجُوعِها خلعَةً سَنِيَّةً ، ثم أَمَرَ رِجالَهُ وحُجَّابَهُ بالتَّوَجُّهِ إلى الفلكِ الَّذى بِه ابنةُ أخيه لاسْتِقْبالِهَا واسْتِصْحَابها إلى قَصْرِهِ هِىَ وَمَنْ مَعَهَا .

ومَا هِىَ إلا بُرهةٌ ، حتَّى كانَ رجالُ الملكِ يُرَحِّبُون بدَوْلَةِ خَاتون ورَفيقِها سيف المُلوك، ويَصْطَحِبُونَهُما إلى قَصْرِ الملكِ ، ويحمِلُون ما مَعهُما منْ تُحَفٍ وكُنُوزٍ .

وفرِحَ الملكُ بِلِقاء دوْلَةِ خَاتون ، وأَرْسلَ مِنْ فَوْرِه رَسُولًا إلى

أخيه تاج المُلوك يُعلِمُهُ بنبأِ العثُور على ابنَتِه .

وما عَلِمَ الملكُ تاجُ المُلوك بهذا النَّبأِ السَّارِّ حتى أسرعَ فشَدَّ رِحالَهُ إلى مَدِينَةِ أخيه فى جَمْعٍ مِنْ رِجَالِهِ المُحَمَّلِينَ بالهَدَايا والطَّرائف .

وكانَ لقاءٌ بينَ الملكِ وابنتِه أىَّ لقاء !! ثم قدَّمَتْ دولةُ خاتون سيفَ المُلوك إلى أبيها ، وعرَّفَتْه أنَّهُ هُوَ الَّذى أنْقذَهَا وخَلَّصَها من يَدِ خَاطِفِها الجِنِّى ، فشَكَرَهُ أبُوها وأثْنَى على مَا قامَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ مَجيدٍ جَلِيل .

وأقامَ الملكُ تاجُ المُلوك فى ضِيافَةِ أخِيهِ بِضْعَةَ أيَّامٍ فى أفْرَاحٍ واحْتِفالَاتٍ ، ثُمَّ صَحِبَ ابنتَهُ هِىَ وسَيْفَ المُلُوك ، وعَادَ رَاجِعاً إلى بِلادِهِ .

والتَقَتْ دَوْلَةُ خَاتون بأمِّها ، فكانَ بينَهُما لقاءٌ لا تُوصَفُ فَرْحَتُهما فيه . وأقِيمَتْ الأفْرَاحُ مِن جَدِيد بِسَرَنْدِيبَ مقرِّ الملكِ تاجِ الملوك احتفالاً بعودةِ دولةِ خَاتون سَالِمةً ، وشَارَكَ الشعبُ مليكَهُ فى هذه الاحتِفالاتِ ، وأبْدَى لَهُ كلَّ مظاهِرِ السُرورِ والوَلَاء .

أما سيف المُلُوك فقدْ قَرَّبَه أبُو دولةِ خاتون إلَيه ، فلَمَّا لَمَسَ نُبْلَهُ وشجاعَتَهُ قال لَهُ ذاتَ يوم :

يا سيف المُلوك : إنِّى لعَاجِزٌ عن أنْ أكافِئَكَ على ما صَنَعْتَ ، إذْ رَدَدْتَ ابنَتِى إلَىَّ ، وقد رأَيتُ أنَّ أحسنَ مَا أكافِئُ به شجاعاً كريماً هو أنْ أتخِذَكَ لى وَلَدا وأتنازَلَ لَكَ عن مُلْكِى لتديرَه بهِمَّتِكَ وحِكْمتِك .

فقالَ سيف الملوك :

قد قبلتُ هبتَك وهىَ مردُودَةٌ منِّى إلَيْك ؛ يا ملكَ الزَّمَان ؛ إِنِّى مَا أَبْغِي مَمْلَكَةً ولَا سَلْطَنَةً ولا نُقُودًا ، وإِنَّما أَبْغِي أَنْ يُنِيلَنِي اللهُ ما خَرجتُ مِن بِلَادِى لِأَجْلِهِ .

قال الملكُ :

إِذنْ دونَك يا سيفَ المُلوكِ خزَائِنِي ، فخذْ منها ما تَشَاء وافعَلْ ما تُرِيد .

قال سيفُ الملوكِ :

إنى ما أُريدُ الآن إلا أنْ أطُوفَ بمدينَتِكَ للتَّفَرُّج عليها ، ومشاهَدَةِ أسْواقِها .

قالَ الملكُ :

لَكَ مَا تُريد .

ثم أَمَرَ بعضَ رجال حَاشِيَتِهِ وحُرَّاسِهِ بِمُرافقَةِ سيف المُلوكِ والطَّوافِ معه حيثُ يُحِبُّ وأَيْنَما شَاء .

وبينما سَيفُ الملوكِ يمرُّ بأحد ميادينِ المدينةِ ذات يومٍ أثناء طوافِهِ بها — شاهد شابًّا رثَّ الثياب ، بيده قِبَاءٌ ينادِى عليه رَغبةً فى بيعِهِ ؛ وحرَّكَت رؤْيَةُ هذا الشابِّ وقِبائِهِ فى نفسِ سيفِ الملوكِ لواعجَ ذكرى قديمة ، فأمر بعضَ مَن مَعه من الحرس بمصاحبةِ الشابِّ إلى القصر حتى ينتهى هو من طوافِهِ ويعود إليهم .

وصَحِبَ الحرسُ الشابَّ حيث أودَعوه سجنَ القصر ؛ وعاد سيفُ الملوكِ من طَوافه مجهَدًا ، فنام ، وقد غاب عن باله أن يسألَ عن الشاب

الذى أمر الحرس بمصاحبته .

ومرتْ أيامٌ على هذا الحادث ، وظن القائمون بأمر السجن فى القصرِ أن هذا الشابَّ الذى أمرَ سيف الملوك بحجزِه ما هو إلا مُذنب مغضوبٌ عليه، فأخذوه فيمن أخذوا من المسجونين والأسارى إلى حيث يُسَخَّرون فى أعمال العنف والقوّة .

ومرتْ الأيامُ على هذا الشاب وهو يعمَل مع المساجين دون أن يعرف له ذنبًا ولا جَريرة ، ودون أن يتذكَّر سيفُ الملوك من أمرِ هذا الشابِّ شيئًا . إلى أن جاء يومٌ جلس فيه سيف الملوك يتذكَّر ما مرَّ به من أحْداث ، وما جرى عليه من حوادث منذ غادر بلادَه فى صحبةِ وزيرِه ومماليكه ، وفجأةً تذكَّر سيفُ الملوك أمر الشاب الذى شاهَده يومًا بالسوق ينادى على القِباء ، وأمر الحرَسَ باستصحابِه إلى القصر، ثم لم يعلَم بعد ذلك ما تمَّ فى شأنِه ! فنادى على الحرسِ وسألهم عنه فأجابوه :

لقد حَجزناه بالسجنِ كما أمرتَنا يا مولانا .

قال :

أنا لم آمُرْكم بسجنِه — وإنما أمرتُكم باصطحابِه إلى القصرِ . . . فأين هُو الآن ؟

قالوا :

إنه يشتغِلُ كغيره من المساجين فى المنشآت والعمارات .

قال : ائتونى به فى الحال .

وأُحضر الشابُ إلى حضرة سيف الملوك ، فسأله وهو يتفرسُ فى وجهه :

ما اسمك أيها الشابُ ؟ ومن أيّ البلاد أتيْتَ ؟

قال الشابُ وهو خافضُ البصر :

اسمى ساعدُ بن الوزير فارس ، وبلادى . . .

ولم يَدَع سيفُ الملوك ساعدًا ليتمّ حديثَه، بل أسرع إليه يعانقه ويقبِّلُه ودموعُ الفرح تجرى على خَدَّيه وهو يقول :

الحمد لله الذى جمعنى وإياك ثانيةً يا أخى ، وأرانى وجهَك بعد أن حسبتُ ألَّا لقاء . . !

ورفعَ ساعدٌ عينيْه إلى وَجْه هذا الشابّ الذى يعانقه بلهفة ويُقبِّلُه بشوْق فعرَف فيه وجْه مليكه وأخيه ورفيقِ طفولتِه وصباه سَيفِ الملوك !

يا لَلفرَحَة . . وهكذا اجتمَع شملُ سيف الملوك بساعِد بعد طولِ الفِراق ، وكان بينهما لقاء جَلّ عن أن يكون مثلُه لقاء . . ! !

وأمر سيفُ الملوك بإعداد حمّامٍ فاخر لساعِد ، وبعد قليل كان ساعدٌ يرفُل فى ثيابٍ حريرية فاخرة وهو يجلس بين الملك سيف الملوك والملك تاج الملوك يقُصُّ عليهم قصتَه من وَقتِ أن فرّقَت المقاديرُ بينَه وبينَ سَيفِ الملوك فقال :

تَعلَمُ يا أخى سيفَ الملوك كيف افترقْنا ، وتكسَّرَت سُفُنُنا ، وسَقطْنا بين أمْواجِ البحر . . بعد ذلك تمكنتُ أنا وجماعةٌ من المماليك من

التَّسلُّقِ فوقَ لوْحٍ كبيرٍ من ألواحِ سَفينتِنا المحطَمَةِ ، فسار بنا كأنه الفُلكُ حتى قذَفتْنا الأمواجُ به إلى إحدى الجُزر ، فخرجنا إليها ، وكان بنا من الجوع والعطشِ ما بنا ، فأقبلنا على ثِمار الأشجار نأكل ، وعلى عُيونِ الماء نشربُ ونَنْهل . وبينما نحن فى ذلك لم نشعر إلا وأقوامٌ مثلُ العفاريتِ قد وَثَبتْ عَلَى أكتافنا وَركِبتْنا كأننا خَيلٌ أو حَمير .

فقال سيفُ الملوك :

لقد كِدتُ أنا وجماعةُ المماليك التى كانت معى نقعُ فى مثْلِ هذا المأزق ، ولكننا فَرَرنا منهم . فما فعلتَ يا أخى فى التَّخلص من كِتافِهم ؟!

قال ساعِد :

لقد هدانا الله إلى حيلة أبادت هؤلاء القوْم وخلَّصَتنا من قبضتِهم .

كان هؤلاء الأشخاصُ لا يفارقون أكتافَنا ليْلا ولا نَهارًا فيأكلون ويشربون ويقْضون جميعَ حاجاتِهم وهم فوقَ أكتافَنا ، لا نستطيعُ من كِتافِهم فِكاكاً ، وبينما نحن نجولُ بهم بين الأشجارِ ذات يومٍ ليقطِفوا منها ما يحلو لهم من ثِمارِها . مَررْنا على كرومِ العِنبِ ، فخطرَ لبعضِنا أن نتَّخذ من عصيرِها شرابًا يقوِّينا على ما نحن فيه من عَنَت ومشقَّة . فأخذْنا نقطِفُ عناقيدَ العِنبِ ، وَنُلقى بها فى حُفْرَة بين الصُّخور ، وندوسُها بأقدامِنا حتى صارتْ عَصيرًا . فتركْناها بعضَ الوقتِ فى حرارةِ الشمسِ ، ثم عُدنا إليها فوجدنا العصيرَ قد صار خمرًا ، فأخذنا نشربُ مِنْهُ ، ثم اصطنعنا القدرةَ عَلَى تحمل هذا العبء الذى فوق كواهِلِنا .

ولاحَظ هؤلاء الأشْخاصِ الذين نحمِلُهم فوقَ أكتافِنا ما دَبَّ فينا من نَشاطٍ ، فسألونا عنِ السِّرِّ فى ذلك فقُلْنا لهم : إنَّه من الشَّرابِ الذى صَنعناهُ من عَصيرِ العِنبِ ، ثم أَخذْنا نَقفِزُ ونَرْقُص وهم فوقَ أكتافِنا فَسرَّهم ذلك وقالوا لنا : اسقُونا مِن هذا الشَّرابِ الذى تشربونه .

فقُلْنا لهم : إنَّه لا يَكْفيكم سنَصْنعُ لكم شَرَابًا آخَر .

قالوا :

تعالَوْا نَدُلُّكم على مكانٍ به كثيرٌ مِن هذه الثِّمار .

ثم ساقونا إلى وَادٍ مَلآن بأشجارِ الكرومِ ، فأخذْنا منه عِنبًا كثيرًا ووَضعناه فى حُفْرةٍ كَبيرةٍ كالحوْضِ ، وصَنعنا فيه ما صنَعنا فى المرّةِ السابقةِ ، فلمَّا صارَ خَمرًا قُلْنا لهم :

أين الأوانى التى سنَسْقيكم بها ؟

قالوا :

لقد كان عندَنا حَميرٌ مثلُكم ، فلمَّا ضعُفوا عن حَمْلِنا أكلْناهم، فاسقُونا فى جَماجمِ رءوسِهم .

ثم ساقونا إلى مكانٍ وَجدْنا به كثيرًا مِن العِظامِ الآدميَّة ، فدَبَّ بقُلوبِنا الخَوفُ والرُّعبُ . وقال بعضُنا لبعض :

أما يَكْفى هؤلاء الغِيلانَ أن يَتَّخِذوا منَّا حَميرًا ومَطايا حتى يَقتُلونا ويأكلونا بعد ذلك ؟ !

ثم أخذْنا الجماجمَ فملأْناها خَمرًا ، وأخذْنا نَسْقِيهم ؛ وقدِ اعتزَمْنا فى

أنفسِنا أثرًا . أمّا هم فصاروا يشربون تارةً ويغنّون أخرى ويقولون :

هذا الشرابُ مُرُّ المذاقِ قبيح .

ونحنُ نحضُّهم على الشُّربِ ونُخيفُهم بقولِنا لهم :

إنَّ مَن يَشرَبُ مِن هذا الشرابِ قدَحًا ولم يُكمِّلْها عشرًا يموتُ في ليلتِه . فصاروا يشربون ويشربون حتى سكِروا ، وارتخَتْ أعصابُهم ، وانفكّتْ مفاصلُهم عن كِتافِنا ، فألقيْنا بهم إلى الأرضِ ، وجمَعنا حوْلَهم الحطب ، وأوْقدْنا فيه النار . ثم ذهبْنا إلى موْضعٍ بعيدٍ فاغتسَلْنا مِن الأقذارِ التي كانت فوقَ أكتافِنا ؛ ونِمنا مِلْءَ عيونِنا بعدَ أنِ استراحَت أجْسامُنا ممَّا كانَتْ تُعانيه .

فلمَّا أصبحَ الصَّباحُ ذهبْنا إلى حيثُ النَّار فوجدْنا الغيلان قد صارت أكوامًا من الرَّماد .

فقال سيفُ الملوك :

الحمدُ للهِ الذي أنجاكم جميعًا من شَرِّ هؤلاء القومِ ، فماذا فعلتم حتى خرجتم من الجزيرة ؟

قال ساعِد :

لقدْ نجوْنا مِن شَرِّ هؤلاء الغيلان ، ولكنْ فرَّقتنا المقاديرُ بعد ذلك . لقد صنَعنا لأنفُسِنا مَراكبَ صَغيرةً يَسَعُ الواحدُ منها ثلاثةَ أشخاصٍ منَّا ، ثم ركِبناها وسِرْنا بها في البحر ، ففرَّقتنا الأمْواجُ ، وقذَفتْ بالقاربِ الذي كنتُ فيه إلى جَزيرةٍ أُخرى ، فصَعِدتُ إليها أنا ورفيقايَ اللّذانِ

كانا مَعى بالمركب ، ونحن نأمُلُ أن نجدَ بها خيرًا ، فوجَدنا بها رَجلًا طويلَ اللِّحْيةِ ، طويلَ الأُذُنيْن ، مُشتعِلَ العيْنيْن ، يَسُوقُ أمامَه قَطيعاً من الغنَمِ ؛ فما إن رآنا حتى رحَّب بِنا ، وقال لَنا : اذهَبوا إلى هذه المغارةِ واجلِسوا فيها مع الرِّجالِ الذين تجدونهم هُناك حتى أُجهِّزَ لكم من هذه الشِّياهِ طعاماً . فشكرْناه وذهَبنا إلى المغارةِ التى أشارَ إليها ، فوجدْنا بها عَددًا كبيرًا من الرِّجالِ جُلوساً ، فألقينا عليهم السلامَ فرَدُّوا ، وسألونا مَن أنتم ؟ قُلْنا :

نحن ضُيوفٌ ساقَنا البحرُ إليكم .

قالوا :

وَا أسفاهُ ! ! سيكونُ مصيرُكم مثلَ مَصيرِنا .

فتعجَّبنا مِن قولهم وقُلْنا :

وما مَصيرُكم ؟ ! !

قالوا :

تصيرون عُمْياناً مِثلَنا ، ثم يأكُلُنا الغُولُ وَاحدًا بعدَ الآخر .

وإذْ بالرَّجُلِ الذى قابلَنا بالجزيرةِ قد دخَل علينا وبيدِه ثلاثةُ أقداحٍ من اللَّبنِ وهو يقول :

إنكم يا ضُيوفى جِياعٌ عِطاشٌ فخذوا ارْتَوُوا من هذا اللبنِ حتى أشْوِىَ لكم اللَّحْمَ وأُنْضِجه .

ثم ناوَلنى قدَحى ، وناوَل رَفيقىَّ قدحَيهِما ، وطلبَ منَّا أن نَشْربَ ،

فقالَ عليَّ رجُلٌ من الجالسين بالمغارةِ كان جالساً بجوَاري وهمَس لى قائلًا :

عند ما تَشرَبُ هذا اللبنَ ستَصيرُ أعْمَى مِثلَنا .

فما سمِعْتُ هذا حتى سكَبتُ اللبنَ فى حُفرَةٍ بالأرض كانتْ بجانبى ، وتظاهرتُ بِشُرْبِه ثم صَرَخْتُ :

آه يا عيْني ! ! قد ذَهبَ بَصَرِى .

فضحِكَ الرَّجلُ وقال لِى :

لا تَخفْ .

أمَّا رَفيقاى فلَمْ أَستطِعْ تنبيهَهما إلى ما سيُصيبُهما من شُرْبِ اللبنِ ، فَشرِبَا اللبنَ فعَميا لساعتِهما .

وخرجَ الرَّجلُ ثم عاد بعدَ قليلٍ باللَّحْمِ النَّاضِجِ ، ودعانا جميعاً إلى الأَكلِ فأَكلْنا جميعاً ، وأنا أتظاهرُ بالعَمى . ثم قامَ إلينا فأَخذ يَجُسُّنا واحداً واحداً ، فمَنْ وَجدَه سَميناً ذا لَحْمٍ وشَحْمٍ ابتَسمَ وأظهرَ ارتياحَه ، ومن وجده نحيفاً أعْجَفَ قلَبَ شَفتَه، وأظْهرَ اشمئزازَه، وبعدَ أنْ استقرَّ رأْيُه على الرَّجلِ الذى سيَكونُ عليه الدَّوْرُ فى أنْ يَذْبَحَه ويأْكُلَه فى المرَّةِ القادمة ، أَتَى بإناءٍ من الخمْرِ وَجلَسَ على بابِ المَغارَةِ يَشْرَبُ ويشْرَبُ حتى غَلَبَهُ السُّكْرُ والنَّوْمُ فنَامَ ، وصارَ شَخيرُه عالياً مُزْعِجاً ، فمِلْتُ على الرَّجلِ الذى بجانبى وقُلْتُ له :

يا صاحِبي ؛ أنا لمْ أَشْرَبِ اللبَن ، ولم يُصيبْنِى العَمى ، وسأَنْهضُ إلى هذا الوَحْشِ وهو نائمٌ فأَقتُلُه وأُريحكم منه .

فقال الرجل :

لقدْ أخبرَنا يوْماً أنه لا يموتُ إلا إذا شُطِرَ نِصفين بسيْفٍ موجودٍ في هذه المغارة .

فأدَرتُ بصَري في أرجاء المغـارةِ ، ورفعْت نظَري أتفحَّصُ جُدرانَها ، فلم تَقع عَيني إلا على طاقةٍ بجدارها ، بها شيءٌ ملفوفٌ ، فتسلَّقتُ إلَيها بمُعاونة صاحبي فوجَدتُ هذا الشيءَ هو السيْف المطلوبُ ، ففَرِحتُ به أشدَّ الفرَح ، ولـكنَّ صاحبي قال لى :

إنه سَيتمكَّنُ منك قبل أن يموتَ ويقْتلَك .

قُلتُ له :

سأعمى عيْنيهِ أوّلا حتى لا يرانى .

ثم قُمت من فَوْرى فأخذت سيخيْن من الأسياخ التى كان يُعلِّقُ بها الغُولُ اللحمَ على النار ، فحميْتهما في النار حتى صارا مِثلَ الجمر ثم أتيْتُ إليه فركَزْتُهما في عينيْه ، وضغطْتُ عليهما بكل قوَّتى ، فصرَخ صرخةً عظيمة ارتجَّت لها الجزيرةُ ، ثم نهض يجرى ويتحسَّس حَواليهِ ، ثم دخَل إلى المَغارةِ يريدُ الفتْكَ بالرِّجال الذين بها ، فأمسَكْت بالسيْفِ وضربْتُه بقوَّة في وَسَطه ، فشطَرْت جسمَه شطرَين ، فصاح يقول :

أيها الضارب ؛ اضرِب ضرْبةً أخرى حتى تُجهزَ علَىَّ .

فرَفعتُ يدى بالسيفِ لأُخَلصَ عليه ، فصاح علَىَّ الرجُلُ الذى دَلَّنى علَى السيفِ :

لا تَضرِبه ضربةً أخرى فإنه يَعيش ويَهلكُنا .

فكففتُ يدى عنهُ ، فمات لِوَقتِه .

وأقمنا بالجزيرة زمَنًا طويلاً نأكل من الأغنام التى كان يملكها الرجُل ومن الثمار التى تحملها الأشجارُ ، وكانت عَيناىَ لا تفارق أفقَ البحر ، حتى رأيتُ يوماً سفينةً تلُوح لى عن بُعد ، فأخبرتُ أصحابى هذا الخبرَ ، واجتمعْنا جميعاً على صَخْرة عالية بالشاطئ وأخَذنا نُلوّح للسفينة بعَمائمِنا ، وبقِطعٍ من ملابِسنا ، حتى رأينا السفينة تقترب منَّا شيئاً فشيئاً .

وكان أصحابُ السفينةِ فى شكٍّ من أمرنا ، لأنَّ رَبابنةَ السُّفنِ كانوا يعلمون أن هذه الجزيرةِ يسكنها غُول ما إن يقعُ إنسانٌ فى قبضته حتى يكونَ مَقضياً عليْه ، لذا كانوا يَتجنَّبون المرورَ بها أو القربَ منها . فلما تحققَ ركّابُ هذه السفينة من أننا رجالٌ يطلبون النجدةَ اقترَبوا منَّا ، وأنزلوا لنا قارباً حملَنا إلى السفينة ، واستفسَروا منا عن أمرنا ، فأخبرناهم بما كان . وسارت بنا السفينةُ فى أمان الله زمَناً ، ثُمَّ هبَّت عليها عاصفةٌ شديدة أغرقتها ، فتعلقْتُ بلوحٍ من الخشبِ ، وما زالت الأمواجُ ترفعنى وتَخفِضُنى حتى قذفَتْ بى إلى شاطئ هذه البلادِ ، فصعَدْت إليها فوجَدتُها بلاداً عامِرَةً آمنةً ، إلَّا أنى لم يكنْ معى ما يُمسكُ رمَقى ، فخطرَ ببالى أن أبيعَ قِبلْى حتى أتقوَّتَ بثَمنِه إلى أن يأتِى فرج اللهُ فررتَ أنتَ يا سيفَ الملوكِ علىَّ ، ثم كان ما تعرِفُه .

فقال سيفُ الملوكِ ضاحِكاً : الحمدُ لله الذى جعل هذا سبباً فى أن نلتقِى :

(٨)

فى هذه الآونةِ كانتْ الأميرةُ دولةُ خاتون تجلِسُ فى غُرفتِها تُحدِّثُ فتاةً شابةً فاتنةَ الحسْن ، رائعةَ الجمال ، وتَقُص عليها ما جَرى لها فى غيْبتِها وكيفَ خطفها الجنىُّ ابنُ الملكِ الأزرق ، وكيفَ حبَسها فى القصر الفاخِر الأثاث والرِّياش، وتَصِفُ لها كيفَ نجتْ من سِجْنها هذا على يد شابٍّ مليح شجاع اسْمُه سيفُ الملوكِ .

وكانت الفتاةُ الجميلةُ تُنصِتُ إليها مستعجبةً من حَدِيثِها ، مُنْدَهِشةً مما جَرى لها من أحْداثٍ وحوادِث . فلما انتهتْ دولةُ خاتُون من حديثها أقبلتْ عليها صديقتُها تهنِّئُها بسلامتِها وعودَتِها إلى بلدِها وَأهْلِها ، وتقولُ لها :

يا أختى ؛ لقد كان حُزنى شديداً عندما علمتُ بغيابك ، وكان سُرورى عظيما عندما جاءنى نبأُ عودتِكِ سالمةً ، فأسرعتُ بالحضورِ إليكِ لِرؤيتِكِ وتهنئتِك .

قالت دولةُ خاتون :

وأنا كذلك كنتُ فى شوْقٍ عظيمٍ إلى رُؤْيتِكِ يا بديعةَ الجمال ! ! وكُنتُ أوَدُّ حضورَكِ لِأُحدِّثَكِ فى أمرٍ هامٍّ .

قالتْ بديعةُ الجمال :

ها أنذا قد جئتُ ، فحدِّثِينى يا أخْتى بكلِّ ما عِندَكِ .

قالتْ :

لقد حدَّثتُكِ يا أُختى حديثَ الشَّابِّ الذى أنقذنى من ابن الملك الأزرق . . وقالت بديعةُ الجمال :

نعمْ ، ولكنَّكِ لم تُخبِرينى كيف ساقَ اللهُ إليكِ هذا الشَّابَّ ، وكيفَ جاء إلى تلكَ البُقْعَةِ النائيةِ البعيدَةِ حيثُ كنتِ سجينةً فى هذا القصْر ، وكنتِ قطعتِ الأمَلَ منْ أن ترَىْ إنسيًّا

قالت دولةُ خاتون :

لِذلكَ قِصَّة يا عزيزتى ، وهىَ التى كنتُ أوَدُّ أن أحَدِّثُكِ بها .

قالتْ :

قُصِّيها عَلَىَّ ، فإنى أشتهى أن أسمَع حديثَكِ .

قالتْ دولةُ خاتون :

لقد ساقت المقاديرُ سيفَ الملوكِ إلى المكان الذى كنتُ سجينةً فيه ، وكان قد خرج من بلاده وراء غايةٍ يبحثُ عنها ، فذاقَ فى سبيلها الأهْوالَ وقاسَى الصِّعابَ وجابَ البرارِى ، وطاف البحار، دونَ أن ييْأسَ أو يصرفَ بالَهُ عنها .

قالت بديعة الجمال :

ومَا هِىَ هذه الغايةُ التى جعلتْهُ يُقاسِى ما قاسَى من أجْلِها ؟ !

فابتسمتْ دولةُ خاتون وقالتْ :

هذه الغاية يا بديعة الجمال هى أن يَعثُر عليكِ ويعرفَ مقرَّكِ ! !

ونظرت بديعة الجمال إلى دولةِ خاتون نظرة العَجَب والدَّهْشة، وأنكرتْ عليها ما تقولُ، وبادرتْها:

أتمزَحين يا دولة خاتون؟!

أجابت دولةُ خاتون:

بل هى الحقيقة بعينها يا بديعة الجمال.

قالت بديعة الجمال وقد ازْدادت دهْشتها وزادَ عجبُها:

من أينَ لسيفِ الملوك الإنْسىّ أن يعرِفنى ويسعى فى طَلبى؟!

قالت:

لقد رأى صُورتك على القِباء الذى كان قد أرسَله أبوكِ إلى الملك سُليمان ابن داود، فأرسله سليمان هديةً إلى الملك عاصم بن صفوان والد سيفِ الملوك فى جملة الهدايا التى أرسلها إليه.

فقالت بديعة الجمال وقد أدركت ما هنالك:

ولكن هذا مستحيل! ولن يكون! فما كان للإنس يومًا أن يتَّفقوا مع الجان.

قالت دولة خاتون تستعطفها:

آه يا بديعة الجمال لو تعلمين كم قاسى هذا الإنْسىُّ فى سبيلك، إنه منذُ رأى صورتك لم تغيبى عن باله، فإنه إذا تكلَّم لم يذكر إلَّا بديعة الجمال، وإذا سكَت لم يمرّ بخاطِره إلَّا بديعة الجمال، وإذا نامَ لم يَحْلم

إلّا بديعة الجمال؛ ولذلك استعْذَب فى سبيل الوُصول إليك مرارة الأحْداث وهَانتْ عليه قسوة الأيام ، وتنكُّرِ الزمان .

قالت بديعةُ الجمال مُعاتبةً دولة خاتون :

يا دولة خاتون ؛ كيف تكلِّمينَنى بمثل هذا الكلام ؟! وتخاطِبيننى بمثل هذا القَوْل ؟! وما الذى يرْجَى من وراء ذلك ؟!

قالت دولة خاتون :

أنتِ تعلمين أنكِ لى بِمنزلةِ الأُخت ، وما كنتُ لِأُ كَلِّمك بمثل هـذا الكلام إلّا وأنا على يقين أنك ستجدين فى سيفِ الملوكِ كلَّ ما تَحْلُمُ به وتَتَمَنَّاهُ الفتاة ، وستَجِدينَ معهُ كل سعادةٍ وهناءةٍ .

فقالتْ بديعةُ الجمال وقد احمرَّ وجهها غَضَباً :

يا دولة خاتون؛ لن أسْمَح لكِ أنْ تخاطِبِينى بعدَ ذلك بمثل هذا القول .

قالت دولة خاتون :

لقد تَعهَّدْتُ لسيفِ الملوك وأنا فى قصْرِ الجِنِّى لَمَّا رأيتُ من حاله أنْ أعْمَــلَ على أنْ أجمَعَ كِلَيْكما ، وأنْ أُرِيَهُ إياكِ ؛ فهلْ يُرْضيكِ يا بديعةَ الجمالِ أن تخذُلينى أمامَ شابٍّ أنا مدينةٌ له بحياتى ؟!!

قالت بديعةُ الجمال : ما كان لكِ أن تقيِّدى نفسَك بمثل هذا العهد ، وأنت تعلمين أن فتاة الجن ليس لها حياة مع فتَى الإنس

قالت دولةُ خاتون : لو رأيتِ أنت ما رأيتُ أنا من شدةِ حُبِّه لك وهُيامِه بكِ لَمَا قلتِ مثل هذا القول ، ولَمَا تمنَّعْت عليه . يا بديعةَ الجمال ؛

إنه شاب ليس مثلَ الشباب الذى تظنين . . إنه . .

وأخذتْ دولةُ خاتون تصفُ لبديعة الجمال ما عليه سيفُ الملوكِ من حُسْنٍ وجمال ، وما يجيدُه من فروسية ، وما يتَّصِفُ به من شجاعة ، وما يتحلَّى به من الأخلاق الطيبة والخصال الحميدة ، وما عليه من عِلم وأدب ، إلى أن قالت :

فباللهِ عليك يا بديعة الجمال اعطِفى عليه ، وأَريه وجهَك ولو مرّةً واحدةً لأجل خاطرى ، ولِحَقّ اللبن الذى رضَعناه معاً .

قالت بديعة الجمال وقد لانت بعض الشيء لتوسُّلاتِ صديقتها :

لقد قبلتُ أن أُريَه وجهى لأجل خاطرك مرة واحدة ، على ألا تطلبى منى شيئاً آخر بعد ذلك ، وألاّ تحدّثينى فى شأنِه أيّاً كان السببُ الذى يدفعُك إلى الحديث .

قالت دولةُ خاتون فرحةً : لَكِ ذلك .

ثم نهضت من فورِها لتبشِّر سيفَ الملوك بالبشرى العظيمةِ التى لاقى ما لاقى من أجلها ، ولتُعِدَّ مكاناً لائقاً يَلتقى فيه سيفُ الملوك مع سالبةِ لبِّه بديعة الجمال !

وفى ناحيةٍ من نواحى البستان الكبير الزاهرِ الذى يحيط بالقصر يقعُ بناءٌ صغيرٌ تحيط به الأشجار العالية ، وتَلُفه النباتاتُ المتسلِّقةُ ، وعليه استقرّ رأى دولة خاتون ليكون مقرّاً للاجتماع المنشود ، فأمرت خادماتها أن يجهِّزْنه ويُعْدِدْن فيه كلّ ما يلزمُ من أسبابِ الراحة ، وما يشتهى من

صُنوفِ الطعام والشراب . ثم ذهبتْ إلى سيفِ الملوكِ فزفَّتْ له البشرى التى تمناها طويلا ، وراوَدَه طيفُها فى أحلامِ اليقظةِ والمنام ، وأعلمتْه بمقرِّ المكان الذى رتَّبته لاجتماعه ببديعة الجمالِ ، وقالت له :

اصحبْ أخاكَ ساعِدًا ، وانتظرا فى هذا المكانِ حتى نأتىَ إليكما .

ولم يمضِ إلا قليلٌ حتى كانَ سيفُ الملوكِ وساعِد جالسَيْن بين الأشجارِ والأزهار فوق طنافسَ الدِّيباج ووَسائدِ الحرير ، وكان سيفُ الملوكِ مشرقَ الوجهِ ، جميلَ الطلعةِ يَرْفلُ فى حُلَلٍ فاخرةٍ نفيسة .

ولم يستطعْ سيفُ الملوكِ الثباتَ فى مكانِه ، ولا الصبرَ على مجلسِه حتى يحينَ موعِدُ قدومِ حبيبتِه مع دولةِ خاتون . فقدْ أهاجتْ فكرةُ قُربِ لقائها الشوقَ فى نفسِه ، وأوقدتْ لهيبَ الحُبِّ فى قلبِه ، فنهضَ من مكانِه وصار يذْرَعُ المكان ذِهابًا وإيابًا وهو لا يكادُ يَسْتقرُّ على حالٍ ، وزاد اضطرابُه فغادر المكان إلى البستانِ يَروحُ ويَغدو بين أشجارِه وأثمارِه ، ويُناجى أزهارَه فيحدِّثُها حديثَ حبيبتِه ، ويقفُ أمامَ وُرودِه ويتخيَّلُها بديعةَ الجمالِ فيتحدَّثُ إليها ويُناجيها ، ويَبثُّها لوَاعجَ شَوْقِه بما عُرِفَ عنه من أدبٍ جَمٍّ ، وبيانٍ رائعٍ جميلٍ .

ومرَّ الوقتُ وسيفُ الملوكِ غارقٌ بين لواعجِ حُبِّه ، تائهٌ فى رياضِ أَدبِه وشِعرِه ، فنهضَ ساعِدٌ ولَحِقَ به ، وأخذَ يتمشَّى بجانبِه وهو لا يفتأُ يُمنِّيه بقربِ الحصولِ على غايتِه وتحقيقِ أُمنيَّتِه . . . ! !

وما هى إلا بُرهةٌ حتى كانت دولةُ خاتون ، وبديعةُ الجمال تخطُران إلى

المكان الذى كان سيفُ الملوك وساعِدٌ ينتظرانِ فيه منذُ وقتٍ قليلٍ ،
فعجبتْ دولةُ خاتون أنها لم تجدْ صاحِبَيْها فى هذا المكان ، ومع ذلك فإن
هذا لم يَصرفْها عن إجالةِ النظرِ فيما أعدَّتْ الجوارى من طعام وشراب .
ولم تأسفْ لأنها لم تبلِّغْ صديقتَها أنها ستقابلُه الآن ، وفضَّلتْ أن تفاجئَها
به ؛ فأخذَتْ تُنمِّقُ أنواع الأزهار ، وتُرتِّبُ صُنوفَ الفاكهةِ الموضوعةِ
فى صِحافِ الذهب ، وتملأُ أكواب الشرابِ فوقَ مِنضَدةٍ حوَتْ كلَّ
لذيذٍ مُشتهًى .

وعلى متكأٍ بجوار نافذةٍ جلستْ بديعةُ الجمال تُسرِّحُ طرْفَها فى
البستان . وفجأةً سمعتْ دولةُ خاتون بديعةَ الجمالِ تسألُها وهى لا تزالُ
منصرِفةً إلى النظرِ من النافذةِ التى تجاورُ مجلسَها .

مَنْ يا دولةُ خاتون هذا الشابُّ الجميلُ ، ذو القَوامِ الفارعِ البديع ،
والوجهِ الحسنِ الوسيم ، الذى يتجوَّلُ بين الأشجار ، ولا يَكُفُّ عن إنشادِ
الأشعارِ بصوتٍ مؤثرٍ حَنون ، ويُصَعِّدُ الزفَراتِ فى شَجَنٍ ولوْعة ؟ ! !

فنظرتْ دولة خاتون من النافذةِ إلى حيث أشارتْ بديعة الجمال ،
فرأتْ سيفَ الملوك يسير بين أشجارِ البستان ومن خلفِه ساعِد ،
وسيفُ الملوك ينشُد أشعارَ الُحبِّ ، ويترنَّمُ بأناشيدِ الغرام . فقالتْ
دولة خاتون : هل تأذنين لى يا بديعة الجمال فى حضورِه حتى نراه
ونتعرَّفَ حالَه ؟ !

قالت بديعة الجمال : لو كان فى إمكانِك هذا فافعليه . لقد أثارتْ

أثارُ هذا الشابُّ نفسي ، وحرّكتْ مشاعري .

عندئذٍ أطلّتْ دولة خاتون من النافذةِ ، ونادتْ قائلةً :

أيها الملكُ ، ويا ابنَ الملك ؛ تكرّم علينا ، وتعال إلينا !

وسمِع سيفُ الملوك نداء دولةِ خاتون ، فعَلِمَ أنها تدعوه ، فاتجه مع ساعِدٍ رفيقِه إلى القاعةِ التى كان جالساً فيها من قبل ، وما إن دخلَها حتى وقعت عيناه على بديعة الجمال ، وهى جالسةٌ على المتكأِ فى صدر المكان ، فشهِقَ شهقةً كاد أن ينشقّ لها صدرُه ، واضطربَ جسدُه اضطراباً جعله يترنّحُ حتى أوْشكَ أن يسقُطَ .

فأسرعَ ساعِدٌ إلى نجدةِ صاحبه ، وعاونَه حتى أجلسَه بالقُرْبِ من بديعة الجمال التى نظرتْ إلى دولةِ خاتون نظرةً تنِمُّ عن سؤالٍ واستفهامٍ .. فقالت دولة خاتون :

أُقدِّمُ لكِ يا عزيزتى الأميرة ، الملِكَ سيفَ الملوك الذى حدّثتُك عن شجاعتِه وبسالتِه ، والذى كانت نجاتى على يديه ، وهو الذى تحمّل المشاقَّ واستحلَى الصِّعابَ فى سبيلِك . أما ما رأيته من اضطراب مشاعِره ، واهتياج عواطفِه ، فكان من مفاجأته بلقائِك ثم من تأثيرِ رؤيتِك ، فاشمَليه يا بنتَ الملكِ بعطفِك ، وأشعريه بحنانِك .. !

فقالت بديعةُ الجمال : ما كُتِبَتْ السعادةُ يوماً لابن إنسيّ أحبَّ بنتَ جنّيّ ! ولا لابنِ جنّيّ هامَ ببنتِ إنسى .. ! فما كان هذا الحبُّ إلا لَغْواً .. وما كان ذاك الهُيامُ إلا لنهايةٍ من أسوأِ النهايات ، وعاقبةٍ

من أوْخمِ العواقب ، فالوفاء بين أبناء الإنس و بنات الجنّ نادر ، والمحافظة على العهودِ بينهم تكادُ تكون معدومة .

فقال لها سيفُ الملوك : إن الوَفاء خُلُق ، والإخلاصَ شِيمتى ، فما كلُّ امرئٍ كأخيه ، وما كلُّ المحبّين سواء .

قالت : إنى أخافُ على نفسى عاقبةَ الغَدْر ، وأخشَى تغيُّرَ القُلوب .

قال : لستُ أنا الذى أغدُر بمَنْ أُحبّ ، ولستُ أنا الذى يترُك قلبُه عهدَ مَنْ عاهد . تقبّلى يَدِى وعاهدينى ، وسترَيْن مبلغَ حُبّى ، وعِظَمَ إخلاصى ، ومقدارَ وَفائى .

قالتْ ، وقد أطرَقتْ حياء وخجلًا : لولا خوفى وخشيتى لفتحتُ لك قلبى ، ومددتُ لك يَدِى ياسيفَ الملوك .

فنهَض سيفُ الملوك من مجلسه ، وجثا بين يديها وهو يقول :

افتحى لى قلبَك يا بديعةَ الجمال دون خوفٍ أو خَشية ، ومُدّى لِى يدَك أحفظْها بين يدى طِوالَ ما أعيشُ من الزّمان .

فمدّتْ بديعةُ الجمال يَدَها إلى سيفِ الملوك وقد عَلَتْ وجهَها حمرةُ الخجَل ، وخَفَقَ قلبُها حُبًّا . فأمسكَ سيفُ الملوك يدِها ، وانهالَ عليها لَثمًا وتقبيلًا .

ونهضَتْ بديعةُ الجمالِ من مجلِسِها فنهضَ على أثرِها سيفُ الملوك ، وسارَا معًا وقد تشابكتْ أيديهما ، حتى غادَرا القاعةَ وخرَجا يتمشّيان بين خمائلِ البستان .

عندئذٍ أشارتْ دولةَ خاتون إلى جارية بديعةِ الجمال التى كانت تنتظر خارجَ القاعةِ أنْ تتبعَ سيفَ الملوك وبديعةَ الجمال عن مَبْعَدةٍ بعد أن حمَّلتْها صينيَّةً بها بعضُ المأكولاتِ والمرطِّبات .

وسارَ سيفُ الملوك مع بديعةِ الجمال يتحدَّثان ، حتى إذا ما كانا فى ظِلِّ شجرةٍ ضَخْمةٍ وارفةٍ جلَسَا يتشاكيان ويتناجيان ، وتقدمَت الجارية فوضَعتْ أمامَهما ما كانتْ تحملُ ، ثم اعتزلتهما إلى ناحيةٍ قَصيَّة .

وأخذَ سيفُ الملوك وبديعةُ الجمالِ يتناوَلان ما بين أيديهما من طعامٍ وشرابٍ ، وهما يتبادلان حديثاً حُلْوًا صافياً . وكان من حديث سيفِ الملوك :

كيفَ أخطُبُكِ من أبيكِ يا بديعةَ الجمال ؟

قالتْ : سأُعلِمُك الوسيلةَ التى تَنالُ عن طريقِها رِضاءَ أبى . . . سأُكلِّفُ جاريتى أن تحملَك إلى بستانِ إرَمَ حيثُ يَسكنُ أهلى . وهناك سترى فى وَسَطِ البستانِ خيمةً كبيرةً من أطلس أحمرَ ، وبطانتها من حريرٍ أخضر ، فادْخل الخَيْمةَ ترَ بها عجُوزًا جالسةً على مِنَصَّةٍ من الذهبِ الأحمر المرصَّع بالدُّرِّ والجوْهر . فإذا ما دخَلتَ فألقِ عليها السلام بأدَبٍ واحتشامٍ ، ثم انظُرْ إلى ما تحتَ المِنَصَّةِ تجدْ هناك نِعالاً منسوجةً من أسلاكِ الذهب ، ومزَركَشَةً بأسلاكِ الفضَّة ، فخذْ هذه النِّعالَ وقبِّلْها ، وقرِّبْها من رأسِك ، ثم ضَعْها تحتَ ذِراعِك اليُمْنَى ؛ فإذا سألتْك العجُوز : مَنْ أنت ؟ ومِنْ أينَ جِئْت ؟ وكيفَ وَصَلتَ إلى هنا ؟ ولماذا فعلتَ

ذلك بالنِّعال ؟ فلا تتكلمْ حتى تدخُلَ جارتى فتُحيِيَها عنك وتستعطِفَها عليك . فإن هذه العَجُوزَ هى جَدَّتى أمُّ أبِى ، ولن تَنالَ رضاً أبِى إلا عن طريقِها .

ثم نادَتْ بديعة الجمال جاريتَها وقالتْ لها :

يا مرجانة ؛ بحقّ محبّتى لكِ إلّا قضَيْتِ لى حاجةً سأُكلِّفُكِ إياها ، فإذا قضَيْتِها فأنتِ حُرَّةٌ ولكِ عندى كلُّ الإعزازِ والإكرامِ ومكافأةٌ طيّبةٌ .

قالت الجاريةُ :

مُرِى يا مولاتى ، وعلىَّ السمعُ والطاعةُ .

قالت بديعةُ الجمال :

أريدُ أن تحمِلِى هذا الشّابَّ الإنسىَّ على كتِفيْك ، وتَطيرى به حتى توصِّليه إلى خَيْمةِ جَدَّتى أمِّ أبى فى بُسْتان إرَمَ . فإذا رأيته دخلَ وأخذَ النِّعالَ وقبَّلَها وسألَتْه جَدَّتى : مَنْ هُوَ ؟ فادخُلى أنتِ مُسرعةً ، وسلِّمى عليها ، وقولى لها :

هو الملكُ الذى ذَهبَ إلى القصرِ المَشِيد ، وقتلَ ابنَ الملكِ الأزرق ، وخلَّصَ الأميرةَ دولةَ خاتون ، ونقلَها إلى أبيها سالمةً . ثم قولى لها : ولقد أرسَلوه معِى لكى تُكافئيه على شجاعتِه وبسالتِه . عندئذٍ ستدعُوه جَدَّتى إلى الجلوسِ بجانبِها وتحدِّثُه ، وتسألُه عما فَعل ؛ فإذا ما حدَّثَها أعجَبَها ، ورَضِيَتْ عنه ، وأمرَتْ له بالطعامِ والشرابِ . فإذا ما فعلتْ هذا فأقبِلى عليها ، واعمَلى على استمالتِها إليه .

ثم أفهمتْ بديعةُ الجمال جاريتَها ما تقولُ عندئذٍ وما تفعل .

فقالت الجارية : سمعًا وطاعةً يا مولاتى .

ثم حملتْ سيفَ الملوك على ظهرها وقالتْ له : أغمض عينيك .

فأغمض سيفُ الملوك عينيه فطارتْ به ؛ وما هىَ إلا برهةٌ حتى سمعَ صوتَ الجاريةِ وهىَ تقولُ له : افتح عينيك .

ففتحهما ، فوجدَ نفسَه فى بستانٍ كبيرٍ أمامَ خيمةٍ عاليةٍ حمراءِ اللون ، ذاتِ بطانةٍ من حريرٍ أخضر ، فعرفَ أنه قد صار فى بستانِ إرَمَ ، وأنَّ هذه الخيمةَ ما هىَ إلا خيمةُ جدَّةِ بديعةِ الجمال ؛ فاستعانَ باللهِ واجتازَ بابَها ، فوجَد نفسَه فى خيمةٍ فسيحةِ الجوانب ، متعددةِ الأركان ، قد نُصبتْ فى صدرِها منصَّةٌ من ذهبٍ لامعٍ برَّاق ، جلستْ فوقَها عجوزٌ هَرِمة ، واصطفَّت على جانبَيها جَوارٍ للخدمة . فألقى السلام ، ثم وجَّه نظرَه إلى ما تحتَ المنصةِ فوقعتْ عيناه على النعال ، فتقدمَ وأخذَها ، وقبَّل بها كما عرَّفته بديعةُ الجمال .

فلما سألته العجوز عن أمرِه ، أسرعَتْ جاريةُ بديعةِ الجمالِ فدخلَتْ إلى الخيمة ، وتقدمَتْ من العجوز ، وحدَّثتها حديثَ سيِّدتِها ؛ فلما أحسَّت منها إقبالاً على الحديث ، ورأتها قد أمرَت لسيفِ الملوكِ بالطعامِ والشراب — تقدمتْ منها ، وقالتْ لها :

سيِّدتى ! باللهِ عليكِ ، أليسَ هذا الشابُّ بجذابٍ مليح ؟!

قالت العجوز : واللهِ إنه لكذلك .

قالتْ الجارية : سيّدتى بديعةُ الجمالِ تُقرِئكِ السلام ، وتقولُ لكِ لقد آن الأوانُ لأنْ تَرَيْها عَرُوساً فى كَنَفِ زَوْجٍ كريم .

فسألتها العجوز :

ومَنْ هو هذا الزَّوجُ الذى تقدَّم لخِطْبَتِها ، ووَقعَ عليه اختيارُها ؟

قالتْ الجارية : هو سيفُ الملوكِ . . !

عندئذٍ لمعتْ عينا العجوزِ ، وانتفختْ أوْداجُها غيظاً وغضباً ، وصاحت بالجارية صيحةً اهتزتْ من قوَّتها وبشاعتِها جوانبُ الخَيْمَةِ ، وقالتْ للجارية :

يا جاريةَ السوء ؛ متى كان يحصلُ اتفاق فِى زواجٍ بين الإنس والجنِّ ؟!!

فتقدم سيف الملوكِ من العجوزِ باسم الثغْرِ ، وقال لها :

أنا هو يا سيدتى الذى لا يحيد عن عهدٍ قطعه على نفسه ، ولا يحنثُ فى يمينٍ حلفها ، ولا يتخلى عن حبيب وهب له قلبه . . !

فقالتِ العجوز : ليس بين الإنسِ والجنِّ عُهُود .

قال : سترينْ ذلك منى ، وسوفَ أكونُ ولدكِ وخادمك وحافظ عهدِكِ ، وستتبينين إنْ شاء اللهُ صدقى من كذبى .

فأطرقتِ العجوز برأسها وقتاً ، ثم رفعتهُ وقد انبسطت أساريرُها ، وقالت لسيفِ الملوكِ :

لا بأس بكِ أيها الشابُ المليح ، اذهبْ فتنزه فى بستاننا هذا ، وكلْ ماتشتهى منْ فاكِهتهِ الطريفةِ النادرة ، وذلك حتى أُرسل إلى ولدى

شَهْيَال فأُحدِّثه فى هذا الأمر ، ولن يكون إنْ شاء اللهُ إلا خيرًا .

فشكرها سيفُ الملوكِ ، وقبَّل يديها ، وغادر الخيمة إلى البستانِ .

فقالت العجوزُ لمرجانة جاريةِ بديعة الجمال :

يا مرجانة ؛ اذهبي وابحثي عن ولدى شهيال ، وانظريه فى أى قطر هو ، واطلبي منهُ أن يحضر لمقابلتى دون تأخيرٍ أو توانٍ .

فقالت الجارية :

سمعًا وطاعةً يا سيِّدَتِي .

ثم غادرت مَرْجَانَة الخيمة ، وصَعِدَتْ ، فاختفتْ فى أجْوَازِ الفضاء للبحْثِ عنِ الملكِ شَهْيَال والدِ الأميرةِ بديعة الجمال .

(٩)

كانَ الملكُ الأزرقُ غارقًا فى هَمٍّ دَائمٍ ، وحزْنٍ شَديد ، وغَمٍّ مُقيم ، مُنذُ أنْ عَلِمَ بمقتلِ وَلَدِه عَلَى يد أحدِ أبناء الإنسِ كما تنبأ لهُ العرَّافونَ منذ مَوْلدِ وَلَدِه . وكانَ أتباعهُ وجواسيسُهُ يجوبونَ البِلادَ ، ويطُوفون بين الأَرْضِ والسماء ، للبحثِ والاسْتِقْصَاء عمنْ قتلَ ابنَ مَلِيكِهِمْ ليأخذوا بثأرِهِمْ مِنْه .

وتصادَفَ أنْ كانَ خَمْسَةٌ منهُمْ يمرُّونَ فوقَ بُسْتَانِ إرَم ، فلَمَحُوا شَابًّا مِنَ الإنْسِ يَسيرُ بينَ أشْجَارِه وغِيَاضِه ، فقالَ بعضهم لِبَعْضٍ بِعَجَب :

مَنْ هذا الشابُ الإنْسِيُّ الذى يسيرُ فى بُسْتَانِ إرَمَ ؟ ! وَمَنْ أَتَى بِهِ إِلَى أَرْضٍ يَسْكُنُها الجَانّ .

فقالَ البعضُ الآخَر : إِنَّهُ يَسيرُ مطمئِنًا آمِنًا..!! فَلاَ بُدَّ أَنَّ لَهُ شأنًا..!

فقالَ وَاحِدٌ منهم :

لَقَدْ علمتُ أَنَّ أميرَنَا المقْتُولَ كَانَ يحْتَجزُ عنـدهُ فتاةً إِنْسِيَّةً بالقَصْرِ المَشيد، وأَنَّ هَذِهِ الفتاةَ صَدِيقَةٌ للأَميرةِ بديعة الجمالِ، بنت الملك شَهيَال . فلاَ يُسْتَبْعدُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الإنْسِيُّ الذى يَسيرُ فِى بُسْتَانِهم هادِئًا مطمئِنًا هُوَ الذى قتلَ أميرنا المحبوب .

فقالوا : إِذَنْ هَيَّا بِنَا نَخْتَبِره، ونتعرَّفُ شَأْنَهُ ، لعلَّنَا نستطيعُ أَنْ نستدْرِجَهُ لنعرفَ خَبَرَه .

فهبطوا إلى البستانِ، ثمَّ ساروا إلى ناحيةِ الشابِّ الذى يسيرُ فى مَمَرَّاتِهِ متنزِّهًا متريضاً ، وهم فى هيئةِ شُبَّانٍ وَادعين لطاف . فلما اقتربوا منهُ أقبلوا عليه فَرِحين مُبْتَسِمين يقولون :

أَيُّهَا الشابُّ المليح ؛ ما قصرتَ أبدًا فى قتلِ ابن الملكِ الأَزْرَق ، وتخليصِ الفتاةِ التى كان يحتجزها منهُ ، لقد كان مجرِمًا غادرًا ، مكر بها مَكرًا دَنيئًا ، ولَوْلا أَنْ قَيَّضكَ اللهُ لها لما خلصتْ من يديهِ أبدًا . باركَ اللهُ فيكَ أيها الشابُّ وأبقاك ، والآن قصَّ علينا كيف أعانك الله فيسر لك قتلَ هذا المجرم..!!

فاغترَّ سيفُ الملوكِ بهذا الكلام وانخدعَ وابتسمَ وقال :

لقد يسرَ الله لى قتله بهذا الخاتم الذى فى إصبَعى .

فَتَيَقَّنَ أتباعُ الملكِ الأزرق أن هذا الشابَّ هو القاتلُ الذى يَسْعَوْن فى طَلَبِه فانقضوا عليه جميعاً ، وكَمُّوا فَاهُ ، وحملوه فيما بينهمُ ، وطاروا بِهِ ، وكأنهمْ البرق الخاطف .

وما هىَ إلا هُنَيْهَةٌ حتى كانوا ماثِلِينَ به أمامَ مِلكهم ، وهم يقولونَ لهُ : ها قد جئناكَ يا موْلانا بقاتلِ ولدِكَ !

فقالَ الملكُ بلهفَة : وأينَ هو ؟!!

قالوا جميعاً فى نفسٍ واحدٍ . هَا هو ذا

وأشارُوا إلى الشابِّ الذى أتوْا به معهم .

فنظرَ إليه الملكُ نظرةً حاقِدَةً قبيحة ، وسألهُ بغضب : من أنتَ ؟!!

أَجابهُ الشابُّ : أنا سيفُ الملوكِ بن الملكُ عاصمِ بن صفوانَ !

قال الملك : أأنتَ الذى قتلتَ ولدى وفلذةَ كبدى ؟!!

أَجابَ سيفُ الملوكِ وهو رابطُ الجأشِ :

نعم ، أنا الذى قتلتهُ .

فجحظَتْ عينا الملك فى محجرَيْهما ، واشتدَّ غضبهُ ، وزاد اهْتياجهُ ، وصاحَ على سيفِ الملوك بصوْتٍ راعدٍ أجَشٍّ :

لم قتلتهُ بغيرِ حقٍ ؟! ما الذى أتاهُ معكَ من ذنب ؟!

قالَ سيفُ الملوكِ :

لقد قتلتهُ بحَق ، وذنبهُ أنهُ كان يَخْطفُ بناتِ الملوك ، ويذهبُ بهنَّ

إلى القصرِ المشيد ، فيسجنهُنَّ فيه ، ويُفرِّقُ بينهنّ وبينَ أهلِهن ؛ فخلّ لى أن أقتُلَهُ وأذهبَ روحه إلى النّارِ وبئسَ القرار .

فاستشاط الملكُ غضباً ، والتفتَ إلى وزرائِهِ ومستشاريه وهو لا يكادُ يملكُ نفسهُ من الغيظِ ، وقال لهم :

ها كُمْ قاتلُ ولدِى ، فبماذا تُشيرُون علىَّ فِى أمره ؟ أأقتُلهُ أشنعَ قِتْله ، أم أعذِّبهُ أشدَّ عذاب ؟ !

فقالَ وزيرُه الأكبرَ ؟ ! اقتلْهُ بأنْ تقطّعَ أعضاءهُ عُضوًا بعدَ عُضْو ، ويكونُ ذلكَ التقْطِيع بسكِّينٍ باردٍ .

وقال وزيرٌ آخر : اقتلوهُ بأنْ تشطروهُ نصْفين .

وقال ثالث : عذِّبُوهُ بالضّرْبِ المُبَرِّح ، ثمَّ أحْرِقُوه بالنّارِ .

وقال رابع : اصْلُبُوهُ ثم قطِّعُوا أطْرَافَهُ جميعاً .

وصارَ كُلُّ وَاحِدٍ منَ الحاضِرِين يُبْدِى رأياً ، وَأَخَذَ المسْتَشَارُونَ يَتبارَوْنَ فِى إظْهارِ ما فِى جُعْبَتهم مِنْ فنٍّ جَدِيدٍ لِلقتْلِ والتّعْذِيبِ حتَّى تقدَّمَ مِنَ المَلِك جنِّيٌّ عجُوزٌ كَانَ المَلِكُ يلْجَأُ إلى رَأْيِهِ فِى الأمُورِ العَصِيبَةِ ، فقَالَ لِلمَلِكِ :

يَا مَوْلَاىَ ؛ سَأُبْدِى لَكَ رَأْياً ، وَالرأىُ رَأْيُكَ فِيماَ بَعْدَ ذَلِكَ . لَقَدْ عَلِمْتَ يَا مَوْلَاىَ أَنَّ أَعْوَانَك قَدْ أَتَوْا بِهذَا الشَّابِّ مِنْ بُسْتَانِ إِرَم حيثُ كَانَ فى ضِيافَةِ المَلِكِ شَهْيَال ، فَتَرَيَّثْ فِى قَتْلِهِ واسْجُنْه حَتَّى تَتَبيَّنَ الأمْرَ عَلى جَلِيَّتِهِ .



فانقض أتباع الملك الأزرق على سيف الملوك وحملوه فيما بينهم وطاروا به

فقَالَ المَلكُ : ولَكنَّ هَذَا قَاتِلُ وَلَدَى ! فكَيْفَ لَا أَقتُله وأَكتَفِى بسجْنه ؟!!

قَالَ المسْتَشار :

إنَّهُ فِى سِجْنِك سَيَكُونُ أَسِيرَكَ وَتَحْتَ رَحْمَتِكَ ؛ تَقتُلُهُ حِينَمَا تُرِيد ، وَكَيفَمَا تَشَاء ، بَعْدَ أَنْ تَتَبَيَّنَ صِلَتَهُ بِالمَلِكِ شَهْيَال ، وَتَتَدَبَّرَ أَمْرَكَ مَعَهُ وَأَمْرَهُ مَعَكَ ، فَإِنِّى أَرَى أَنَّ قَتْلَهُ الآنَ لَيْسَ مِنَ الرَّأْى الصَّوَابِ .

فَقَالَ الرَّجُلُ لأعوَانِه : خُذُوا هَذَا الرَّجُلَ ، وَأَلْقُوهُ فِى غَيَاهِبِ السِّجْنِ حَتَّى أَرَى فِيهِ رَأْيِى فِى وَقْت آخَر .

فَسَاقَ الأَعْوَانُ سَيْفَ المُلُوكِ أَمَامَهُمْ ، وَأَوْدَعُوهُ سِجْنَ المَلِكِ الأَزْرَقِ .

(١٠)

وفى ذلكَ الوقتِ كانتْ الجاريةُ مَرْجانةُ قد التقت بالملك شَهْيالَ ، وأخبرَته برَغبةِ والدته فى أن يحضُرَ إليها على جَناحِ السرعةِ ، فأسرع الملكُ شَهْيالُ بالعودة مع الجاريةِ إلى والدته ببستانِ إرَم ؛ فلما دخَلا عليها قالت والدةُ الملك شَهْيال لمَرْجانة :

اذْهبى ، واستَدْعى سَيفَ الملوكِ من البستان ، رَيْثَمَا أُكلِّمُ ولدى فى شأنِه .

خرجتْ الجاريةُ إلى البستانِ تبحثُ عن سيفِ الملوكِ فلم تجدْه ، فطافت بجميع أرجائِه وفتَّشَت خمائلَهُ وغياضَه دون جدوَى ، فعادت إلى

سيِّدتِها العجوز وأخبرَتها بذلك الخبر .

فقالتْ العجوزُ : عجيبٌ منكِ هذا القولُ .. ! سَلِي البستانيين عنه لعلهما يعرِّفونكِ إلى أيِّ وِجْهة اتجَه .

فلما سألَتْ مَرجانةُ البُستانيينِ :

إلى أيِّ جهةٍ اتجه الشابُّ الإنسيُّ الذى كان يتنزه فى البستانِ ؟

قالوا :لقد رأينا خمسةَ أعْوانٍ من أعوان الملكِ الأزرقِ يحادثونه ، ثم حملوه فيما بينهم وطاروا به .

فصرخت الجاريةُ جزعةً ، وأسرعتْ إلى سيِّدتها تحملُ الخبرَ المشئومَ . وما سمعتِ العجوزُ هذا الخبرَ حتى ثارتْ وغضبَتْ ، ونهضتْ قائمةً على قدَميْها ووَجَّهَتْ خطابَها إلى وَلدِها شَهيال قائلةً :

كيف يَتجرَّأُ أتباعُ الملكِ الأزرقِ أن يفعلوا معنا هذا الفعل ، ويأتوا هذا العملَ . . . ؟ ! أيكونُ الملكُ شهيالُ على قيدِ الحياة ويأتى أعوانُ الملكِ الأزرق فيعتَدوا علينا ويخطِفوا ضيْفَنا من أرضِنا ؟ ! ! إن هذا لن يكون أبدًا وأنت يا شهيالُ حيٌّ ترزق . . !

فقال شهيالُ لِأُمِّه :

يا أمى ؛ لقد قلتِ لى أن هذا الإنسيَّ هو الذى قتل ابنَ الملكِ الأزْرقِ وقد ساقهُ اللهُ إلى يدِ الملكِ ، فكَيْفَ تَطلبين مِنى أن أُعادى مَلكاً منَ الجنِّ من أجْلِ رجلٍ إنسِيٍّ ؟ ! !

فقالت العجوزُ بإصرارٍ وهى تَجُزُّ على نواجذِها :

اذهَبْ إليه حالًا على رأس جَيشك ، واطلبْ منْه أن يُسَلِّمَ لك ضَيْفَك فإن سلَّمَهُ لك فعُدْ به ، وإن لم يُسَلِّمه لك فقاتلْهُ حتى تخلِّصَه من بين يدَيه ، وإن كان قد قتلَهُ فلا تعُد إلىَّ إلّا ومعك الملكُ الأزرق هو وحريمُه وأولادُه وكلُّ مَن يلوذُ به من أتباعهِ حتى أذبحَهمُ ، وأشفِى غليلِىَ منهم ؛ وإلا فأنت لَسْت بولدى ، وحَرامٌ فيك تَرْبِيتى .

عِنْدئذٍ نهض الملكُ شَهيالُ من مجلِسه ، ووَدَّعَ أُمَّهُ بعـد أن طيَّب خاطرَها وأَمرَ بإعداد جيشِه فى الحال ، ثم قادَه مُتَّجِهًا إلى بلاد الملك الأزرق .

وعلِم أعوانُ الملك الأزرق بخبر حضورِ جيشِ الملك شَهْيال إليهم لِمُحاربتهم فأَخبروا ملِكَهم بذلك ، فأسرع بالخروج على رأسِ جيشِه لِمُلاقاة الجيشِ القادم .

والتَقَى الجيشانِ ، وتَحارَبا ، وتقاتَلا قتالًا شديدًا أسفَر عنِ انْتِصارِ جيشِ الملكِ شَهيال ، وهزيمةِ جيش الملكِ الأزرق ، وإحْضارِه أسـيرًا بين يدَىِ الملك شَهْيال هُوَ وأهله وكبارُ أعوانهِ .

وسأَل شَهْيالُ الأزرق : أين ضيْفى سيفُ الملوك يا أَزْرق ؟

قال الأزرق : يا شَهيال ؛ أَنَا جِنِّىٌّ وأنت جنِّىٌّ ! أَفمِنْ أجل رَجُلٍ إنسىٍّ تحارِبُنى ! وتَقتُلُ كلَّ هؤلاءِ الأعوانِ من جيشى ؟ ! وأَنتَ تَعلَمُ أنَّ هذا الإنسىَّ ما هو إلا قاتلُ ولَدِى وفَلْذةَ كَبدى !

فقال الملكُ شَهْيال : أَنتَ تعلمُ أَنهُ قتل وَلَدَكَ بحَقٍّ ، فخَلِّ عنك الآن

مثلَ هذا الكلام ، وأْتِنى بِضَيْفِي ، وإلا أَخَذْتُكَ وأَهلَكَ وأولادَكَ وأَعْوانَكَ فِدْيَةً فِيه .

فلم يَجِدْ الملكُ الأزرقُ بُدًّا من أن يأمرَ بإحضارِ سيفِ الملوكِ من سِجنِه وتَسْليمِه للمَلك شَهيال إبقاءً على نفسِه وأهلِه وأولادِه ، وحَقنًا لدماءِ أعوانِه وأتباعِه .

فأحضَرَ سَيفُ المُلوكِ ، وسَلَّمهُ للمِلك شَهْيال ، الذى أَخَذَهُ وعاد إلى بلادِه ، بَعد أنْ وَقَّعَ مع المِلِك الأزرق شروطًا للصُّلح للعمَل بها فيما بَينَهم بعد ذلك .

وعَقَدَت أمُّ الملك شَهْيال مَجلسًا منها وبين ولدِها ومن سَيف المُلوك ، طَلَبت فيه من سيفِ الملوك أن يقصَّ على ولدِها قصَّتَهُ معَ بديعةِ الجمال . فقَصَّ سيفُ الملوك على المِلك شَهْيال قصَّتَهُ من وقتِ أن رأى صورةَ بديعةَ الجمالِ فى القِباء ، وغادرَ مُلكهُ وبلادَه من اجلِها ، حتى خلَّصَهُ المِلك شَهْيال من يدِ المِلِك الأزرق ؛ فأكْبَرَ الملك شَهْيال سيفُ الملوك ، وأُعجِبَ بإخلاصِه وعَزيمته ، وقال لهُ :

لَقدْ ارْتَضَيْتُك زَوجًا لابنَتى ، ما دُمتَ قد تَحمَّلْتَ فى سبيلِها كلَّ هذهِ المَشاقِّ ، وما دامتْ هيَ قد ارْتضَتْك شريكًا لِحياتِها .

ثمَّ قال لأُمّه : اصْحَبيهِ إلى سَرَنْديبْ ، وزوِّجى بديعة الجمالِ منه ، ونوبى عنى فى إقامةِ الأفراحِ هناك ، ريثما أُقيمُ أنا الأفراح للرَّعيَّةِ هنا .

فصَحِبَتْ جدةُ بديعةَ الجمال سيفَ الملوك ، وسافرتْ إلى سَرَنديب

مع خَدَمِها وجارياتها حتى وصَلتْ إلى بُسْتانِ الملكِ تاجِ الملوكِ

وعَلِمَ أهلُ القصرِ بوُصُولِ جدَّةِ بديعة الجمالِ وسيفِ الملوكِ، ففرحوا جِدًّا بذلك، ورحبوا بهم، والتَقَتْ بديعةُ الجمالِ ودوْلة خاتون وأبوها وساعدٌ بأمِّ الملكِ شَهْيَال وسيفِ الملوك، فقصَّتْ عليهم العجوزُ ما لاقى سَيْفُ الملوكِ من الملكِ الأزْرَقِ وأعوانه، وأَخْبَرَتهم بقبولِ الملكِ شَهْيَال سيفَ الملوكِ زَوْجًا لابنته.

فأمر الملكُ تاجُ الملوكِ في الحالِ بإقامةِ الأفراحِ، وتعليقِ الزينات، ونَحْرِ الذبائح، وتوزيع الصدقات.

ثم عقد لسيفِ الملوكِ عَلَى بديعة الجمال وسط مظاهر الفرح وعلاماتِ السرور التي عمَّتْ الجميع.

عندئذٍ تقدَّم سيفُ الملوكِ من الملكِ تاج الملوك وشكره عَلَى ما أبدى نحوهُ من حبٍّ وعطفٍ؛ ثم قال له:

يا ملك الزمانِ؛ لِي عندك رجاء، فلا تَرُدَّنى خائبًا فِيه.

فقال الملكُ تاجُ الملوك: يا سيفَ الملوك؛ إنك لو طلبتَ نفسى لما ضَننْتُ بها عليك. أفصحْ بِمَا تريد أُحَقِّقْهُ لكَ فى الحال.

فقال سيفُ الملوك: أُريدُ أنَ تقبل أخى ساعدًا زوجًا لابْنَتِكَ الأميرةِ دولةِ خاتُون.

قال: إنى أقبلُ ذلك عن طيبِ خاطر.

ورأى قصرُ الملكِ تاج الملوك ليلةً لا يجودُ الزمانُ بمثلها، وفيها زُفَّتْ

بديعة الجمالِ إلى سيفِ الملوكِ ، وزُفتْ دولةَ خاتون إلى ساعدٍ ، وعاشوا جميعاً فى شبهِ حلمٍ جميل سبعة أيامٍ بلياليها ، بينما كانت الأفراحُ قائمةً على قدمٍ وساقٍ فى طول البلادِ وعرضها .

وقالتْ بديعةُ الجمالِ يوماً لسيفِ الملوكِ وهما جالسان فى جلسةٍ سعيدة هانئة : يا سيف الملوك ؛ أَتَحَقَّقَتْ لك أمانيك ، وكَمُلتْ سعادتك ، أم لا يزالُ بنفسك شىءٌ تريد تحقيقهُ .

فاجابها سيفُ الملوك : لقد تحققتْ لى أمانىَّ أكثرَ مما تمنيتُ ، وكملت لِى سعادتى أكثر مما حلمت ، وأريدُ الآن أن أعود إلى بلادِى لأرى أبى وأمِّى وأطمئن على أهلى وعشيرتى .

قالَت : ما عدوتَ يا سيفَ الملوك ما كنتُ أُريدُ أن أَدعوكَ إليه .

ثم أمرتْ جماعة من خدمها بتوصيلِ سيف الملوك وساعدٍ إلى أَهلهما وانتظارهما هُناك حتى يفرُغا من زيارتهما فيعودوا بهما .

فامتثلَ الخدمُ للامرِ ، وَما هى إلا لحظة وَجيزة حتى كان سيف الملوك وساعد بين أهلهما وذويهما الذين كانوا قد فقدوا الأملَ فى عودتهما ، فانقطعُوا للهمومِ والأَحزان ، وأسلموا أَنفسهم للنحيب والبكاء .

وكانتْ فرحةُ الملك عاصم بن صفوان والوزير فارس بعودة ولديهما إليهما سالمَيْنِ بعد طول الفراق فرحةً تجلُّ عن كلِّ وصف ، وتفوقُ كل بيان .

وَأمضى سيف الملوك وساعدٌ بين أهلهما زمناً ، ثم عادا إلى زوْجتيْهما

فى سَرَنديب ، واستمر هذا حالهما : يروحانِ ويغدوان بين بلدِهما وبين سرنديب ما عاشا من زمانٍ .

وبهذا انتهت قصة سيف الملوك وبديعةِ الجمال التى جلس يقصها التاجر حسن على ملك خُرَاسان .

فأُعْجِب بها الملكُ إعجاباً شديداً ، وكافأ التاجر حسناً بالمكافأةِ التى وعده بها ، وأمرَ أن تُكتَب القصةُ بماء الذهب وأن تحفظَ فى خزانته ، لتُقرأَ عليه كلما شعَر بضيقٍ أو كرْبٍ ، وكلما أرادَ أن يتسلَّى تسليةً فيها لذةٌ وفيها مُتعةٌ ، وترويحٌ للنفسِ ، واطمئنانٌ للقلب .



التاجر على المصرى

(١)

كان بمصر تاجرٌ اسمه حسن الجوهرى البغدادى ، وكان من أغنياء التجار ، وأكثرهم مالاً ، وأوسعهم جاهاً وشهرة ، رزقه الله ولداً سماه عليًّا المصرىّ ، وحفَّظهُ القرآن الكريم ، وقام بتعليمه حتى برَعَ فى العلوم والأدب ، وكان يعمل مع أبيه فى التجارة وتصريف شئونها ، ولما حضرته الوفاةُ أحضر ابنه عليًّا ووصاه فقال :

يا بُنىَّ ؛ كلُّ نفسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ، والدنيا إلى زوال ، والآخرةُ خيرٌ وأبقى لمن اتَّقَى ؛ فعليك بتقوى الله وطاعته ، والاعتصام بكتابه ، وسنة نبيِّه ؛ وعليك بصحبة الصالحين من العلماء ، واحذر قرناء السُّوء وصحبة الأشرار ، وأكثر من الإنفاق فى سبيل الله ، وإيتاء ذى القُربى حقَّهم ،

والفُقراء والمساكين ، فإن الله يقول فى كتابه العزيز :

الشَّيطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاء ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفضْلاً .

وأحسن القيام على خدمك وأولادك وزوجتك ، فأنت راعٍ فيهم ، وكلُّ راعٍ مسئول عن رعيته ، أسأل الله الكريم أن يجعل لك من كلِّ ضيق مخرجاً ، ومن كلِّ همٍّ فرجاً . ثم تنفس الصُّعداء وزفر زفرةً لا عودة لها ، وفرغ من دنياه ، ومضى إلى رحمة مولاه .

حزن على المصرىُّ على أبيه حزناً كثيراً ، وقام بتجهيزه ، وذاع نبأ موته وانتشر ، فتوافد على داره الأعيان والوجهاء وعامة الناس ، وشيعوه فى جمع رهيب إلى مقرِّه الأخير ، ولزم على داره أربعين يوماً ، يستقبل فيها جماعات المعزِّين من الإخوان والأصحاب ، وأحضر القُرَّاء والفُقهاء يتلون القرآن ، وأكثر من التصدق على الفقراء والمساكين ، راجياً بذلك أن يسبغ الله على أبيه الرَّحمة والرِّضوان ، وكان فى تلك المدة مثال الصلاح والتقوى .

وبعد تلك المدة جاء جماعة من أبناء التجار المستهترين ، فزينوا له مغادرة داره ، إلى حيث يلهون فى بساتين المدينة ، وقالوا له :

إلى متى هذا الاعتكاف والاستسلام إلى الأحزان ، وليس وراءها إلا ضعف الصحة وجلب الأمراض ؟ ! وليست وفاة أبيك أول حادثة فى صحيفة الأحزان .

وما زالوا يحسنون له مصاحبتهم والخروج معهم حتى وافقهم ، وذهبوا إلى بستان كثير الأشجار ، تحليه الأزهار المتنوعة ، وتعطر بأريجها أرجاءه، وهناك تفيئوا ظلال شجرة باسقة ممتدة الأغصان ، وأحضر أحدهم غداء لهم من بيته ، فأكلوا وهنئوا ، وبعد أن استمتعوا بالأحاديث المختلفة والنوادر الطريفة وعليل النسيم ، ومنظر البستان البهيج ، قفلوا راجعين ، وكان ذلك قبيل الغروب ، وذهب كلٌّ إلى منزله .

وفى صباح اليوم التالى جاءوا عليًّا المصرىَّ وذهبوا به إلى بستان آخر ، وجلسوا فيه يتحدثون ، ولما حانت الظهيرة أحضر أحدهم من بيته مائدة لهم ، تحتوى على ما لذَّ وطاب من ألوانِ الطعام والشراب ، فطعموا وشربوا ؛ ولما انتهى النهار رجعوا إلى منازلهم ، وكان علىٌّ المصرىُّ يحسُّ دواراً فى رأسِهِ ، فسألته زوجتهُ عما أصابه لجعله غير متماسك الأعضاء ، مُضطرب الحركة ، فاتر النظرات ، كأن بعينيه نعاساً أمال رأسهُ ، فقال :

سقانى أصحابى ، فتبدلت حالتى إلى ما ترين .

فقالت : أنسيت وصية أبيك ؟ ! ألم يُحذِّرك صحبة الأشرار ؟

فلم يستطع أن يجيبها بكلمة ، وأسلم نفسهُ إلى فراشه ، وغرق فى نوم عميق إلى شروق الشمس ، وضيع بذلك صلاة الصبح فى وقتها ، وعبثاً حاولت زوجته أن تصرفه عن مصاحبة هؤلاء الأصحاب من أبناء التجار ، واستمرُّوا على هذا اللهو العابث حتى جاء دورهُ فى الإنفاق عليهم ، فجعل ينفق من أمواله فى سخاءٍ وإسرافٍ حتى أحسَّ نقصاً فيه ، وهو لا يزال

سادراً لاهياً ، متحاملا على ما خلّفهُ له أبوه من الأموال بالإنفاق العابث حتى أتى عليه ، وأصبح معدماً لا يملك شيئاً . وفى أثناء ذلك تنصح له زوجته ، وتحذِّرُهُ سوء المصير ، وهو لا يسمع لها ولا يطيع ، وكانت قد ولدت منه ابناً وبنتاً .

انتقل عليٌ بزوجته وولديْه من بيتهِ الذى باعه وسكَن فى حوشٍ حقيرٍ ، وليس عندهم شىءٌ يقتاتون به ، فقالت زوجته :

اذهب إلى أصحابك ، فلعلهم يمدونك ببعض المال إلى أن يبدل الله عُسرنا يسرًا .

فذهب إليهم واحدًا بعد الآخر فما رثوا لحالته ؛ ونفروا منه كأنهم لا يعرفونه . ورجع إلى زوجته خائبا نادماً . فقالت زوجته :

لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ذلك ما كنتُ أُحَذِّرُك منه ، وقد فوضتُ أمرنا إلى الله .

وقامت إلى امرأةٍ تعرفها فى أيامِ العِزِّ والرخاء والنعمة ، فلما دخلت عليها أمعنت فيها النظر ، وعجبت أن تراها على أشدِّ حالات البُؤس والشقاء ، فسألتها عما أصابها ، فقصت عليها ما كان من زوجها على المصرى حتى أصبحوا لا يجدون ما يأكلون ، فَبَكَتْ تلك المرأة ، وجعلت تُسلِّيها وتخَفِّفُ عنها آلام بُؤسها ، وأعطتها مالاً يكفيهم شهرًا ، وقالت :

لا تفكرى فى زادكم ، فإنى رهينةُ إشارتك فى كل ما تحتاجون إليه .

فشكرت لها جميل عطفها ، وعظيم مروءتها ، وقفلت راجعة إلى بيتها .

سألها زوجها على المصرى عن هذا المال الذى أحضرته ، فقصت عليه أمر هذه المرأة الكريمة معها ، فقال :

إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ المَتِين ، وما دمتم قد رزقتم مئونة شهر . فإنى أستودعكم الله الآن ، وسأمشى فى مناكب الأرض متوكلاً على الله ، ساعياً فى الحصول على رزقى ورزقكم ، راجياً من الله أن يُمِدَّنى برزقكم لأعود به إليكم . وقبّل ابنيه وسلم على زوجته ، وخرج ماشياً حتى كان فى بولاق ، وهناك رأى فى نهر النيل مركباً تهيأ للسفر إلى دمياط ، فعزم أن يركب فيه ، ويذهب إلى تلك المدينة ، لعله يجد فيها ما يُنفِّسُ عنه كربة الحاجة والفقر ، فلقيه رجل كان بينه وبين أبيه صلة وثيقة من صحبة قوية كريمة ، فسلم عليه وسأله عن وجهته فقال :

إنى ذاهب إلى دمياط لزيارةِ أصحابٍ لى هناك .

فأخذه إلى بيته وأكرمهُ وأعطاه بعضاً من الدنانير ، وأركبهُ فى الفُلْكِ المسافر إلى دمياط ، ثم سلم عليه مودعاً .

رسا الفلكُ فى ميناء دمياط ، وخرج علىٌّ المصرىُّ منها إلى المدينة ، وبينما هو ماش لا يعرف جهة يذهب إليها ، أو مكاناً يقصده ، أو إنساناً يأنسُ إليه ، وكانت تبدو عليه أمارات الغُربة ، والحاجة إلى رفيق أنيس ، بدا هذا لأحد التجار الصالحين الأذكياء ، فحنَّ إليه وأشفق عليه ، وأخذه معه إلى منزله ، وعرف منه غربته وحالته ، فقال له :

ليكن هذا منزلك ، ولتتخذنى لك أخاً بارًّا وَفيًّا زادى زادُك ، ومالى

مالك ، مدة إقامتك فى دمياط ، فشكر له هذه الرجولة الفذّة ، وتلك الشهامة النادرة ، وذلك العطف الإنسانى الكريم .

(٢)

وبعد مدة أقامها مُتقلباً فى نعمة أخيه الإنسان ، رغب فى الرحيل إلى الشام ، فأمدهُ أخوه بشىء من المال ، وأركبه فى الفلك الراحل إلى الشام ، وودعه أكرم وداع .

دخل على المصرى دمشق الشام ، فكان حظه فيها من إنسان كريم كحظه فى مدينة دمياط من أخيه فى الإنسانية الفاضلة الكريمة ، وخرج يوماً من منزله فوجد قافلة مسافرةً إلى بغداد ورغب أن يصحبها إلى بغداد ، فرجع إلى مُضيفه واستأذنه شاكرًا له مُودِّعاً .

وقيض الله له فى القافلة رجلاً صالحاً أخذه معه ، وكفل له طعامه وحاجته ، ولما كان بينهم وبين بغداد مسيرة يوم بغتتهم عصابةٌ من قطاع الطرق ، ففرقت جمعهم ، ونهبت ما معهم من أموالهم وبضائعهم ، وتفرقوا أيدى سبا .

وكان علىّ المصرى قد سار جاعلا وجهته بغداد ، فكان أمام بابها وقت غروب الشمس ، وكان الحرس يهمون بإغلاقه ، فطلب إليهم أن يُدْخلوه المدينة ، فأدخلوه فيها وسألوه : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وإلى أين تسير ؟ فقال لهم :

إنى رجل من مصر ، ومعى عبيد وتجارة على بغال ، وسبقتهم إلى بغداد لأهيئ محلا لهم ولتجارتى، فلقيَنى عصبة من قُطاع الطرق ، فأخذوا بغلتى وما معى من حوائج ، وفررت منهم خائفاً مذعوراً .

فقالوا : مرحباً بك ، وأهلاً وسهلاً ، ولْتبِتْ معنا الليلة ، وفى الصباح نبحث لك عن محل يليق بك . وكان معه دينار مما أخذه من التاجر فى بولاق ، فأخرجهُ من جيبه وقال لأحدهم : خذ هذا الدّينار وأحضر لنا منه طعاماً نأكله ، فأحضرلهم خبزاً ولحماً ، وأكلوا جميعهم وناموا .

وفى الصباح أخذه أحدُ الحرس إلى تاجر من تجار بغداد ، وحكى له قصته ، فصدق التاجر ما سمع ، وأخذه معه إلى دكانه وأكرمه ، ومنحه حلة فاخرة ، لبسها علىّ المصرى بعد أن اغتسل مع التاجر فى حمّام المدينة ، ثم قال التاجر لأحد عبيده :

خذ سيدك عليًّا المصرى واعرض عليه البيتين اللذين فى مكان . . . ثم ناوِله مفتاح ما يعجبه منهما .

قال على المصرى :

فذهبت أنا والعبد إلى دربٍ بِهِ ثلاثة بيوتٍ متجاورة ، فدخلت البيتين الأول والثانى، وسألته عن البيت الثالث ، فقال :

إنه لسيدى التاجر ، ولكنه عامرٌ بطائفة من الجن ، ولا يسكن فيه إنسان إلا ويصبح ميتاً ، ولهذا استغنى عنه سيدى ولا يُؤَجِّرُه لأحد .

قال على : فقلت فى نفسى : وصلت إلى بغيتى ، فَلأَبِتْ فيه الليلة ، فإن

أصبحتُ ميتاً كما يقول ، فقد ارتحتُ من هذا العناء الذى ألاقيه . ولهذا أمرته أن يفتح بابه ففتحه ، ولما دخلته أعجبت به ، وانشرح صدرى للمقام فيه ، وطلبت منه أن يعطينى مفتاحه ، فقال : حتى أستشير سيدى .

ذهب العبد إلى سيده وأخبره أن التاجر المصرى مُصرٌ على أن يسكن فى البيت الكبير الذى منعت تأجيره ، فقام التاجر وجاء إلى على المصرى: وشرح له حالة هذا البيت وأنه خطرٌ على من يسكنه .

فقال على المصرى : لا أبالى بما يقال عن هذا البيت ، ولن أسكن إلا فيه . فقال التاجر :

إذا كنت مُصراً على أن تسكن فيه فاكتب شهادة منك على أنى أخبرتك بحالته ، وأنك المسئول عن نفسك ، وأنه إذا أصابك منه ضُرٌ فلست مسئولا ، ولا تبعة على ؛ وإنما تبعة سكناك فيه عليك وحدك .

فقال : لك ذلك .

وكتبَ له على المصرى ما أراد ، وأشهد عليه رجلا من رجال القضاء ، وأخذ التاجر هذه الوثيقة لتكون عصمةً له إذا ما أصيب على المصرى بأذًى من بيته هذا . وأخذ علىٌ مفتاح البيت ، وأرسل إليه التاجر مع عبده فرشاً وضعه على المصطبة التى خلف باب البيت لينام عليه علىٌ المصرى مستريحاً ، وأحضر له قنديلا يُزاول على ضوئه ما يريد من أعمال ، كما أحضر له طعام العشاء ، وَوِعاءً كبيراً وإبريقاً وقُلةً ، ثم ودعه وانصرف هو وعبده .

(٣)

أقفل على المصرى باب البيت ، ورأى على ضوء القنديل بئراً ، فأخرج منها ماء توضأ منه ، وصلى العشاء ، وأكل ما حضر له من طعام ، ثم خطر بباله أن يأخذ الفرش ويصعد إلى الطابق الثانى لينام فيه ، فوجد حجرةً سقفها مطلىٌ بالذهب ، وأرضها مفروشة بالرخام الأبيض ، ففرش فيها ، وجلس يتلو ما تيسر له من القرآن الكريم . وبعد قليل من تلاوته سمع صوتاً يناديه : يا علىُّ بن حسن ، هل أنزل عليك الذهب ؟

فقال على : وأين ذلك الذهب الذى تروم أن تنزله .

فما انتهى علىٌّ من قوله هذا حتى وجد الذهب يتدفق فى الحجرة كأنه ماء يتدفق من أفواه القرب ، حتى كاد يملأ الحجرة . ثم سمع صوتاً يقول:

يا علىُّ بن حسن ، أعتقنى محتسباً أجرك عند الله ، فقد أديت لك أمانتك ، وَوَفيت بتوصيلها إليك .

فقال علىٌّ المصرى :

أقسمت عليك برب العالمين أن تخبرنى عن أمر هذه الأمانة وهذا الذهب.

فقال :

هذا ذهب مكتوب لك من قديم الزمن ، وقد كلفتُ بالمحافظة عليه حتى أوصله اليك ، وكلما سكن فى هذا البيت أحد من قبلك ناديت قائلا :

يا علىُّ بن حسن هل أنزل عليك الذهب ، فيضطرب ويخاف ، فأعلم

أنه ليس صاحبه ؛ فأقتله ، حتى قدمت أنت ، ولما ناديتك لم تخف ولم تضطرب ، فعلمت أنك على المصرى بن حسن الجوهرى البغدادى ، فصببته عليك صبًّا ، وبذلك أديت الأمانه ، ووفيت بها . وبقى لك كنزٌ فى بلاد اليمن ، وجدير بك أن تسافر إليه وتأخذه . والآن أرجو منك أن تعتقنى .

فَقالَ عَلِىٌّ : لن أعتقك حتى تأتينى بالكنز من بلاد اليمن .

فقال : وَإن أتيتك به فهل تُعتِقُنى وتُعتق معى الخادم المكلف بحراسة كنزك فى بلاد اليمن ؟

فقال علىٌّ : نعم ، سأعتقُك وأعتق الخادم معك إن أنت أتيتنى بالكنز .

فقال : أَقسم لى برب العالمين أَنك تعتقنى وتُعتق الخادم .

فقال علىٌّ : قبلَ القَسَمِ لى عِندَكَ حاجة .

فقال : وما هى ؟

فقال : لى زوجة وأولاد بمصر بمكان . . . فإن أتيتنى بهم من غير ضرر فإنى مُعتِقُك ومُعتِق الخادم معك .

فقال : لك ذلك .

قال : فأَقسم لى برب العالمين على ذلك

فأَقسم له ، وانصرف صاحب الصوت إلى سبيله .

جلس على المصرى يُفكِّر فى مكان يحفظ فيه هذا الذهب ، وحانت منه التفاتةٌ فرآى رخامةً كبيرة بجانبها شىء يشبه المفتاح ، فذهب اليها



وسمع علي صوتاً يقول : يا علي بن حسن اعتقني محتسباً أجرك عند الله فقد أديت لك امانتك

وحرك المفتاح فانزاحت الرخامة عن باب ففتحه ودخل ، فرأى خزانة كبيرة بها أكياس كثيرة فارغة . فجعل يملأ الأكياس بالذهب ويضعها فى الخزانة حتى نقله جميعه ، وأقفل الباب ، وحرك المفتاح ، فرجعت الرخامة كما كانت .

وفى الصباح أقام صلاة الصبح فى وقتها ، وفرش على المصطبة التى خلف الباب ، وجلس يتلو آياتٍ من القرآن العظيم ، وإذا الباب يطرق ، فلما فتحه وجد عبد التاجر صاحب البيت ، فسلم عليه وانفلت مسرعاً إلى سيده يُبشّرُهُ بسلامة على المصرى ، ففرح التاجر وأخذ معه شيئاً من الطعام ، وذهب إلى علىّ المصرى فسلم وحيا ، وناوله الطعام الذى أحضره ، وسأله : ما فعل الله بك فى هذه الليلة ؟

فقال : ما فعل إلا خيراً .

قال التاجر : ألم تر شيئاً فى البيت ؟

فقال : نمت فى الحجرة التى أرضها من الرخام بعد أن صليتُ وتلوتُ ما تيسر من آى الذِّكر الحكيم ، ولما طلع الفجرُ صليتُ الصبحَ وجلست عَلَى هذه المصطبة أتلوا القرآن حتى جئتَ .

فكان سُرُور التاجر به عظيما ، وأمر عبيدهُ أن ينقلُوا إلى البيت أثاثاً وفرشاً بعد كنسه وتنظيفِهِ ، فنفّذوا أمره وأصبح البيت كأنه من بيوت الملوك ، وترك التاجر لخدمة علىٍّ المصرى أربعة عبيد ، وأربع جوار ، وانتشر فى سوق المدينة خبره ، فوفد إليه التجار ومنحوه كثيراً من



وطلب الخادم إلى علي أن يذهب ليستقبل زوجته وأولاده وكنز اليمن خارج المدينة

الهدايا ، وأخذوه معهم إلى السوق وسألوه عن موعد قُدُوم تجارته فقال: بعد ثلاثة أيام .

وفى اليوم الرابع جاءه الخادم الذى صب عليه الذهب ، وطلب إليه أن يستقبل زوجتهُ وأولادهُ وكنز اليمن خارج المدينةِ ، فذهب علىّ إلى التجار ودعاهم أن يشرفوه بمصاحبته لاستقبال تجارته ، وقال لهم :

ومن شاءت من نسائكم أن تتفضل بلقاء زوجتى فلها الشكر الجزيل .

فجمعوا جموعهم من تجار ونساء وجلسوا فى بستان من بساتين المدينة التى على طريقها العام ينتظرون التجارة ويتحدثون ، وإذا غبرةٌ فى الجوّ قادمة تنكشف عن تجارة محمولة على بغال ، ومعها رجال وجوارٍ وعبيد ، وتقدم رئيس القافلة إلى علىٍّ المصرى فقبل يده وقال :

عاقنا عن الوصول إلى المدينة أمسِ ، أن وقفنا عن المسير مدة حتى يخلو الطريق من جماعة قُطاع الطرق الذين يترصدون عابرًا لينهبوا أمواله

وساروا إلى المدينة والتجار فى عجب من كثرة الصناديق المحمولة على البغال ، ونساؤهم فى دهشة من ملابس زوجة على المصرى ، إذ كانت فى رأيهن لا نظير لها حتى فى قُصور الملوكِ .

وصلت جماعاتُ المستقبلين من رجالٍ ونساءٍ إلى منزل علىٍّ المصرى ، ووضعت التجارة فى الحواصل ، وجلس الرجالُ مع الرِّجالِ ، والنِّساء مع النساء ، حتى جاء وقتُ الظهيرة فقدمت لهم الموائدُ حافلةً بصنوف الأطعمة والحلوى ، فأكلوا هنيئاً ، وشربوا مريئاً ؛ ثم انصرف كل إلى بيتهِ أو

دكانه . وبقى التاجر صاحب البيوت معهُ ، وقال له :

دَعِ البغال والعَبيد والجوارى يدخلون بيتاً من بيوتِي للراحة .

فقال له علىّ : إنهم مرتحلون الآن إلى مكان ... وكانوا من الجن فى صورة بغال وأناسى ثم أمرهم علىٌّ بالرحيل فانصرفوا وساروا حتى خرجوا من المدينة ثم طاروا فى الهواء إلى حيث أرادوا .

ثم سلم عليه التاجر وذهب إلى دكانه ، وجعل علىٌّ المصرىُّ يستقبل الهدايا من التجار من عبيدٍ وجوارٍ وغيرهم ، حتى جاء الليل ، فأقفل الباب وجلس إلى زوجتِهِ وأولاده فهنأها بسلامتها وسلامة الأولاد ، وسألها عما جرى لها فى غيبته ، وكيف قدمت إليه مع تجارته ؟

فقالت :

لبثنا مدة غيبتك نحمل عِبْأين ثقيلين ؛ عِيشتُنا الضنك ، ومخافتُنا عليك ، حتى كانت ليلةُ البارحة ، فجاءنا شخصٌ وحملنا وطار بنا فى الهواء ، ثم نزل بنا فى مكان شبيه بحِلَّةٍ عربيةٍ ، به تجارة وبغال وجوار وعبيد؛ فسألتهم : من أنتم ؟ وإلى أين تسيرون بنا ؟

فقالوا

هذه تجارة علىٍّ المصرى ، ونحن عبيده وَجواريه ، وقد كلفنا بإحضارك أنت وأولاده مع تجارته هذه إليه فى مدينة بغداد ، وأعطانى رئيس القافلة هذه الملابس التى قدمت بها ، أخرجها من صندوق ثم أقفله ، وناولنى مفتاحهُ ، وَوَصانى أن أحرص عليه حتى أعطيكهُ ، وناولتهُ إيَّاهُ .

فقال : وَهل تعرفين الصُّندوق الذى هذا مفتاحُه ؟

فقالت : نعم ، أعرِفه .

ودلته عَليهِ ، ففتحه ووجد فيه حُللا كثيرة فاخرةً ، ومفاتيح بقية الصناديق ، فجعل يفتحها صُندُوقاً بعد آخر ، وينظر إلى مافيه من المعادن والجواهر ؛ ثم أقفلها ، وطلع هو وزوجتُهُ إلىخزانةِ الذهب فأراهُ لزوجته، ففرحت وسألته :

من أين جاءك هذا الذهب الكثير ؟

فقال : هذا من فضل ربِّى .

وقص عليها قصتَهُ من أول غيبته إلىأن قدمت هى إليه مع تجارته .

فقالت له :

هذه آثار دعوة أبيك ، إذ تضرَّع إلىربِّه وهو على فراش موته وقال :

اللهم اجعل لابنى من كلِّ ضيق مخرجاً ، وَمن كلِّ همٍّ فرجاً .

وَرجائى منك ألا تعود إلى ما فعلت من مخالطة قُرناَء السوء وَصحبةِ الاشرار ، وَعليك أن تقابل نعمة اللهبالشكر له ، والاعتصام بطاعته وتقواه.

ثم عاش هو وزوجتُهُ وأولادُه فىأرغد عيش وأهنئه ، ثم وضع تجارتهفى دُكان بسوق المدينة، وذاعتشهرته، وأصبح من كبار التجارةِبها.

(٤)

بلغ خبرهعليٍّ ملك المدينة فأرسل فى طلبه ، فلبى دعوته مُطيعاً .

ذهب على المصرىُّ إلى ملك بغداد ومعهُ هديةٌ ثمينة ، وهى أربع



وذهب على المصرى إلى ملك بغداد ومعه هدية ثمينة

صحافٍ من ذهبٍ مملوءةٍ بالجواهر والمعادن النفيسة ، فحيا وسلم ودعا له بدوام العزّ والسعادة ، ثم وضع هديته على منضدةٍ أمام الملك قائلاً :

هذه هديةُ مُخلصٍ وفِيّ لك ، أضعها بين يديك راجياً التفضُّل بقبولها ، فتأمل الملكُ فيها ، ثم ابتسم قائلاً :

شَرُفَتْ مدينتُنا يا علىُّ ، وقد قبلنا هديتك ، وأرجو من الله أن يُوَفّقنا إلى مكافأتك . ثم شكر له علىٌّ المصرى حُسن لقائه واستأذن وانصرف .

جمع ملك بغداد كُبراء حاشيته ، وعرض عليهم هدية علىٍّ المصرى ، فنالت إعجابهم وأثارت دهشة فى نفوسهم ، وقالوا :

تلك هدية لا مثيل لها فى قصور الملوك .

فقال الملك :

قد استخرت الله وعزمت على أن أزوِّجَه من ابنتى مكافأةً له .

فقالوا : الأمر لك ، وهنيئاً له ولك بهذا الزواج السعيد .

عرض الملكُ الهدية على زوجته فاندهشت وقالت :

لعلها من أحد الملوك الذين جاءوا يخطبون ابنتى .

فقال :

إنها من تاجر يُدعى عليًّا المصرِىّ ، وفد على مدينتنا هذه الأيام ، وهو شاب جميل الصورة ، عاقل فطن ، مُهذبٌ مُؤَدّبٌ ، وكأنه من بيت مُلكٍ عظيم ، أحببتُه عند رُؤْيته ، ورغبت فى أن أُزوِّجَه ابنتى ، وقد عرضت هذه الرغبة على كبار حاشيتى فحازت رضَاهم ، وقالوا :

الأمرُ لكَ ، فماذا تقولين ؟

فقالت :

الأمرُ لله العليّ القدير ولك ، ولن يكون إلا ما كتبه الله لنا .

فقال :

لن أزوِّجها إن شاء الله إلا من هذا الشابّ العاقل المُهذَّبِ .

وفى الصباح دعا الملكُ التُّجار وَعليًّا المصرى والقاضى إلى ديوانه فحضروا وجلسوا ، وهم لا يعرفون َلِأيّ شيء دعاهُم الملك فى صبيحةَ هذا اليوم ، ثمّ قال الملكُ :

لقد دعوتُكُمْ لِتَشهدوا عَقدَ زواج ابنتي .

وأمرَ القاضىَ أن يُبرِمَ زَوَاجَها مِن التاجر عليّ المصرىّ .

فقال عليّ :

عفواً أيُّها المليكُ فلا ينبغى أن يكونَ تاجرٌ مثلِي زَوْجاً لابنتِك .

فقال :

قد أنعمتُ عليك بهذا الزواج وبالوَزارة .

ومنحه فى الحالِ خِلعةَ الوزارة ، وجلس عليّ من فورِه على كُرْسِيّها امتثالاً لأمرِ الملك . ثمّ قال :

لقد تشرّفتُ بهذا الإنعامِ الكريم ، وإني أشكُرُ لكَ هذا الفضلَ العَظيمَ ، وأرجُو أنْ تسمحُوا لِى بكلمة .

فقال الملك : قُل ولا تَخفْ .

فقال علي :

أرى أن تزوجها من ابني حسن وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وإذا رأيته فلن تؤثر عليه أحداً غيره .

فطلبه الملك ، وجيء به إليه في الحال ، فنال إعجاب الملك وإعجاب الحاضرين ، وأبرم عقد زواج ابنته حسن الوجود من حسن بن علي المصري ، ثم انفرط عقد المجلس ، وذهب كل إلى شأنه .

ودخل الوزير علي المصري على زوجته وهو لابس حلة الوزارة ، ومعه ابنه حسن . فعجبت لذلك وسألته :

ما شأنك اليوم ؟ !

فحكى لها ما جرى ، وهنأها بمنصب الوزارة لزوجها ، وبزواج ابنها من حسن الوجود بنت ملك بغداد ، ففرحت وقالت :

بارك الله في دعاء الوالدين ، وفي صالح الأعمال ، والاعتماد على الله .

وكان منزل علي المصري كعبة للمهنئين والمهنئات .

بنى الملك لزوج ابنته قصراً ولأبيه الوزير قصراً بجوار قصره ، وقامت الأفراح في المدينة ثلاثين يوماً ابتهاجاً بزواج ابنة الملك ، ثم زفت إليه في ليلة ساهرة مملوءة بمظاهر السرور والبهجة ، وعرف حسن بن علي بين رجال القصر وحاشية الملك وجمهرة المدينة بالعقل الحكيم ، والذكاء النادر والأدب الجم والخلق الكريم ، ففاز بمحبتهم له وعظيم تقديرهم إياه .

عَقدَ ملكُ بَغْدَادَ مُؤْتمرًا جامعاً من وُزرائه وحاشيتهِ وكُبراء المدينةِ وقضاتها وأعيانها، وعَرَض عليهمْ أن ينظروا فِيمنْ يتولَّى المُلكَ مِنْ بعده، حتى يَكتُبَ له عهدًا بهِ ويبايعهُ به من الآن، فقد كبرتْ سِنُّه، وضَعُفتْ قُوَّتُهُ، وأصبح لا يستطيعُ القيامَ بأعمالِ المُلكِ عَلَى أكملِ وجْه؛ ويخشى أن يُقصِّر في ناحيةٍ من نواحيه، أو في إقامة الحقوق بَينَ الناس، فَتعظُمْ مسئُوليَّتُهُ بَين يدىْ ربِّه يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون.

فاجتمعت كلمتُهُم عَلَى أن يتولَّى المُلكَ حسن بنُ عليٍّ المِصرى.

فقال حسن:

إنَّ أبي أكبرُ مِنِّي وأكْثَرُ تجربةً، وهو أحقُّ بالمُلكِ من ابنه، ولا يصحُّ أن أتخطَّاه وهو لا يزَالُ قويًّا.

فقالَ أبوهُ عليك أن تنزل عَلَى رأى الملكِ، ورأى الجماعةِ وأنا منهم فَاقبلْ منحةَ الملكُ وما أجمعَ عليه رأى الخاصَّة والعامَّةِ، واعلمْ بِأَنَّ الفرَارَ منــه معَ هذا الإجماع تخلص من الواجب. فقَبلَ حسنٌ الملكَ، وَبايعهُ المَلِكُ وَالمجلسُ برُمَّتِه، وَجَلسَ عَلَى كُرْسيِّه، فقَوَّى ضَعفَه، ونَشَّط فاترَه، وأيقَظ نائمهُ، وذَاقَ الناسُ حلاَوَةَ عدْلهِ، وتفيَّئوا ظِلالَ أمْنِه، ثُمَّ توَارَثَهُ أبناؤُهُ منْ بعدِه، حتى انتهت من الدُّنيا أيامُهم، وسُبحانَ مَنْ يَرِثُ الأَرْضَ ومَنْ عَلَيْها.



الحصان المسحور

(١)

كان فى الأزمانِ السالفة ملكٌ من الجبابرة ، له ثلاثُ بناتٍ كأنهنَّ البدورُ ، وابنٌ خلقهُ اللهُ فَجَمَّل خلقه .

وكان هؤلاء الأولادُ لأبيهم قُرةَ عينه ، وموضع حنانه وعطفِهِ ، دخل عليهِ فى مجلسه بديوان حُكمه ثلاثة من الحكماء : مع أولهم طاوسٌ من ذهب ، ومع الثانى بُوقٌ من نحاس ، ومع الثالث فرس من العاج والآبنوس ، فأثارت هذه الأشياء عجب الملك ولهذا سألهم عنها وعن منافعها ، فقال الحكيم الأولُ : هذا طاوسٌ يُرفرف بجناحيه ويُؤَذِّنُ بصوته كلما مضت ساعةٌ من النهار .

وقال الحكيمُ الثانى :

وذلك بُوقٌ إذا وضع على باب مدينة أخرج صوتاً مُدوِّياً كلما دخلها عدو من الأعداء ، وبذلك يمكن إمساكُهُ والأمنُ من شرِّه .

وقال الحكيم الثالث :

وهذا فرسٌ إن ركبهُ إنسانٌ طار بهِ فى الجوِّ وذهب به إلى حيث يشاء ، لا يعجزهُ طولُ المسافة ولا يلحقه وهنٌ أو كلال .

فقال الملك :

إن اختبرتُ هذه الأشياء وَوَجدتكم صادقين فيما قلتم أنعمتُ عليكم ومنحتكم ما تطلبون ، وثبت بالتجربة صِدْقُ الحكيمين صاحِبَىْ الطاوس والبوق ، وطلبا من الملك أن يُزوِّج كلاً منهما بنتاً من بناته الثلاث ، فوفى لهما بوعده ، وزوَّجهُما بنتين من بناته ، وعاشا معه فى كنفه وظلال نعمته .

ورغب الحكيمُ الثالثُ فى أن يتزوج من ابنتِهِ الثالثة حتى لا يكون أقلَّ حظاً من رفيقيه ، فقال الملك :

ستفوزُ بِالزّواج منها إن صدقت فيما قلت .

وكان ابنُ هذا الملك حاضراً ، فأبدى رغبة شديدة فى أن يقوم هو بتجربة الحصان ، فأذن له أبوه أن يركبِ حِصان الحكيم ويُجَرِّبَهُ .

ركب ابنُ الملكِ الِحصان وحرّك رجليه لِيستحِثّه على أن يطير به فلم يتحرك الحصان من مكانه ؛ فالتفت إلى الحكيم قائلاً :



ودخل على الملك ثلاثة حكماء مع الأول طاووس من ذهب ومع الثانى بوق من نحاس
ومع الثالث فرس من العاج الأبنوس

أين ما أخبرتنا به من أن حصانك يطير فى الجوّ براكبه إلى حيث يريد؟

فنهض الحكيمُ إليهِ وأراه شيئاً كالمفتاح على كتف الحصان اليمنى ، وقال له :

إذا أنت أدرت هذا المفتاح بِيدك طار بك الحصانُ وذهب بك إلى وجهتك .

وما كاد ابنُ الملك يديرُ مفتاح الحصانِ حتى طار به فى الجوّ وغاب عن أعيُنِ الناظرين .

أصبح ابنُ الملك سابحاً فى الجوّ الأعلى ، وطال به الزمن وهو لا يدرى كيف يعود إلى أبيه أو ينزلُ إلى الأرض ، فملأ الرعب صدره ، وجعل يبحثُ فى الحصان عن مفتاح آخر يديره ليهبط به إلى الأرض ، فلم يجد إلا مفتاح الصُّعود على كتفه اليمنى ، ومفتاحاً آخر يشبهه على كتفه اليسرى ، فأدار المفتاح الأيمن فزادت سرعة الحصان ، ثم أدار المفتاح الأيسر فقلّت سرعته ، وجعل يهبط إلى الأرض قليلاً قليلاً ، فاستراح ابن الملك وفرح ، وجعل يطوف به فى مناكب الجوّ صاعدًا وهابطاً ، وذاهباً وجائياً ، يشاهد الأرض وجبالها وأنهارها ، وعامرها وغامرها ، حتى كان به فوق مدينةٍ رأى جمال بنيانها ، تحيط بها أرض مخضرة ، بها أشجار كثيرة ، وأنهارٌ جاريةٌ ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، فرغب أن يهبط فى تلك المدينة ، يبيت فيها ليلتَه ، ثم يعود فى الصباح إلى أبيه

فجعل يُحلّق فوق المدينة باحثاً عن مكانٍ آمِنٍ يهبط فيه ، حتى رأى

قصرًا مرتفع البناء ، وسط حديقةٍ فسيحة ، يُحيط بها سورٌ متين شامخ ، فاختار لنفسه أن يهبط على سطح هذا القصر فى هدوء ، حتى لا يشعر به أحدٌ ، ليبيت ليلته آمناً ، ثم يطير بحصانه إلى أبيه فى الصباح .

وكان سُرُورُه عظيماً بعد هبُوطِهِ ، وتَفقُّدِه حِصانَه ، والاطْمئنانِ على سَلامتِه وصَلاحِيَتِه ، وقال فى نفسه .

إن رجعتُ إلى بيتى فسأُجزِلُ العطاء إلى هذا الحكيمِ الذى صنعَ هذا الحصان ، وأعينهُ على تحقيقِ رَغبتِهِ وما يَتمنَّاه .

ولبثَ جالساً بجوارِ فرسهِ حتى أيقنَ أن جميعَ من فى القصر قد ناموا وَكان قد أَحَسَّ جوعاً شديداً ، فترك حِصانَه ، ونزلَ فى سُلَّمِ القصر يبغى شيئاً يأكله ، وانتهى إلى ساحة فسيحة ، فُرِشت برُخامٍ أبيضَ جميل ، ولكنه لم يجدْ أحدًا ، ولم يسمعْ حركةً ولاهمساً ، فَوَقفَ مُتَحيرًا تَجُولُ نظراتُه فى تِلك الساحةِ لا يدرى أَيْنَ يتوجَّه أو يسير .

انتهت حَيْرَتُهُ إلى أن يرجِعَ إلى حصانهِ يبيتُ بجوارِه مُفوِّضاً أمره إلى ربه ، وقبل أن يتحرَّك رَأَى نورًا مُقبلاً نحو الساحةِ التى هُو فيها ، فلبثَ فى مكانه لا يتحركُ ، وإذا بالجوارى مقبلاتٍ ، وبينهنَّ فتاةٌ تَستَهْوِى الأفئدةَ بجمالها وَهى ابنةُ ملك هذه المدينة ، وقد بلغ حُبُّهُ إيَّاها أن بَنى لها هذا القصرَ لِتقيم فيه يوماً أو أكثر كلَّما رغبت فِى التَّرويح عن نفسها باعتزلها الحياة المائجة بصنوف الحركة والعمل ، ثُم تعودُ إلى مقصورتها فى قصر أبيها وأُمِّها ، واتفق أنْ جاءت إلى قصرها

هذا فى تلك الليلة ، وكان معها خادمٌ قد تقلّد سيفاً ، فلما قَرُبْنَ منهُ هجمَ عَلَى الخادم فلطمه عَلَى وجهه ، وأخذَ سيفهُ ، وشتَّتَ الجوارى ، وبقيَت الفتاة ثابتةَ الجنانِ ، فقالت له وكانَ قد أعجبَها قوامُه وَشكلُه :

لَعلّك أَنْتَ الذى خطبتنى بالأمس من والدى ، فَرَدَّكَ خائباً مُتَعلّلا لِقُبْحِ منظرك ، إنْ كُنْتهُ فما وُفِّقَ أَبى وما أصاب ، فمثْلُكَ منْ تُفتحُ له الصُّدُورُ ليحلَّ فيها محلاً كريمًا .

وَدعَتْه إلى الجُلوسِ بجوَارِها عَلَى كُرسِيَ من كَراسى هذه الساحة .

وَكانَ ابنُ مَلِكِ الهند قد جاء يخطبها من أبيها وهو قبيح المنظرِ بشعُ الخلقة ، فأَبَى أن تكون ابنتُهُ زوجةً له وَردَّه آسِفاً حزيناً . فظنت الفتاةُ أنه ذلك الفتى الّذى خطبها بالأمس من أبيها ،وَكان الجوارى قد أقبلن إليها بعد أن جلس بجوارها وسمعْنَ قَوْلها ، فقالت إحداهنَّ :

ليس هذا الفتى الذى خطبك بالامس ، فذلكفتًى يملأُ العين بهجةً والنفسَ مَسرَّةً ، والحمدُ للهِ الذى وَفَّقَ الملكَ إلى الصواب ولم يرضَ بهِ زوجاً لكِ .

وكانَ الخادِمُ قد أقبلَ معهنَّ يسألُ الفتى :

يا سَيِّدى ، أأَنت إنسىٌّ أَمْ جنىٌّ ؟

فقالَ :

إنَّك لجاهِلٌ لا تعِى ما تقولُ ، كيفَ تجعلُ أبناء المُلوكِ من الشياطين ؟ ! أَنا صِهرُ الملكِ وَقدْ زوَّجنى بابنتِهِ هذه .

فقال الخادمُ .

الحقُّ يقال ، إنّ سيّدتى لاتَصْلحُ إلاّ لك ، ولا تصلُحُ أنتَ إلا لها ، فهنيئاً لكما هذا الزواج المبارك السعيد .

ثم انفلت الخادمُ إلى الملكِ صارخاً باكياً ، ففزِع الملكُ من حالته هذه خوفاً على ابنتهِ أن يكون قد نزلَ بها مكروه ، وقالَ له :

أخْبِرنى بسرعةٍ عمّا جرى حتى جئتنى عَلَى هذه الحالة المفزعة النكْراء ، فقال :

لقد دَها سيّدتى مادهاها فى قصرها ، إذِ احتازها واستولى عليها عِفريتٌ من الجنّ فى صورةِ إنسانٍ جميلِ الخَلْقِ وضّاء المحيّا .

فقال الملك :

وكيف تغافلت عن ابنتِي حتى اعتراها ذلك الجنّىّ ؟ !

فقال الخادمُ :

ما تغافلتُ عنْ سيّدتى ، وقد لطمنى على وجهى وَأَخذَ مِنّى سيفى وهذا أثرُ لَطمتِه .

فخفّ الملكُ إلى ابنتهِ مسرعاً ، فاستقبلته الجوارى وقُلنَ لهُ :

بَينما نحن ماشياتٌ فى ساحة القصر إذ فَجَأنا فتًى بديعُ القوامِ تبدو عَلَيهِ آثارُ النّعْمة الواسعةِ ، كَريمُ الخِصال يأبَى الدّنيّةَ ، ويَعفُّ عن كلّ أمرٍ قبيح ، وقدْ أخبرنا أنّك زوّجتهُ مِن ابنتِكَ ، وهو جالسٌ معها فى

ساحة القصر جلسةً بريئةً لا يشوبُها سُوء ، ولا ندرى أهوَ من الإنسِ أمْ مِنَ الجنِّ .

فاطمأنَّ الملكُ قليلاً وَذهَبَ مُسرِعاً إليهما ، فما كادَ يَرَاهُ جالساً بجوارها حتى ثارت فى صدرهِ الغيْرَةُ على ابنتِهِ ، فاسْتَلَّ سيفهُ وَهَمَّ أن يضرِبَ عُنقَهُ ، فلمَّا رآه مقبلاً سَألَهاَ :

هل هذا أبُوكِ ؟

فقالت :

نعمْ هذا أبى مقبلًا .

فانتفضَ قائماً ، ورفعَ سيفهُ ليَرُدَّ عنهُ عُدْوانَه بقَتْلِه .

وأدْرَكَ الملكُ أنهُ مغلوبٌ لهذا الفتى فأغمدَ سيفهُ وَأقبلَ عليهما فى هُدوءٍ وسكِينَة ، وسألهُ :

مَنْ تكونُ أيُّها الفتى؟ أأنتَ إنْسِىٌّ أمْ جِنِّىٌّ ؟

فقالَ :

لَسْتُ جِنيًّا أيُّها الملكُ ولكنى من أبناء الملوكِ الذين أذَلُّوا أعناقَ الجبابرةِ بسيوفهم ورجالِهِمْ ، وما قهْرُكَ وإذْلالُك عَليهم بِعزيز . فَقَدَّرَ الملكُ صدقَ الفتى وَخافَ عَلى نفسِهِ ومُلكِهِ فتلَطَّفَ فى حديثه ، وقال :

إذا كُنتَ منْ أبناء الملوك ، فكيفَ رضيتَ أن تدْخُلَ قصرَ ابنتِى على غير استئذَان ؟! وكيف تدعى أنِّى زَوَّجْتُكهَا وَما التقيتُ بكَ إلاَّ هذه الساعة ؟! أظَنُّكَ أدْرَكْتَ معى خُطورَةَ ما فعلْتَ ، وشِدَّةَ وقعِهِ

على نفسِ ملكٍ مِثْلِي، وأظُنُّك لا تَرْضاهُ لنفسِكَ ولا لِأَبِيك .

فقالَ الفتى :

لا تَشْغَلْ نفسَك بالأمور السطحية مِنْ حياتِكَ ، واهتمَّ باللُّباب مِنها ، ولا تترك فُرْصةً طَيِّبةً تُفلِتُ من يَدِك ، وقدْ ساقَ القَدَرُ لِابْنَتِك ابنَ ملكٍ لا يُسَامَى قُوَّةً وغِنًى وجاهًا ، فهلْ تطمعُ لِابنَتِكَ فى زوْج أحْسنَ مِنِّى ؟ !

فقالَ الملكُ :

لنْ أجِدَ أحسنَ مِنْكَ زَوْجًا ، ولا أكْرَمَ خُلُقًا ، ولا أثْبَتَ جنانًا ، ولكنِّى وَدِدْتُ أن تَخْطُبَها مِنِّى جهرًا ، على مشهدٍ من الكبراء والأعيان والوزراء والقادة ، فذلك أليقُ بالملوكِ وأبناء الملوكِ وبناتِهم .

فقال الفتى :

جانبت الصواب ، وسأجعلُ الخِطْبَةَ عَلَنِيَّةً بطريقةٍ تُعْلِى مِنْ شأنِك ، وترفَعُ قَدْرَ ابنَتِك !

فقالَ الملك :

وكيفَ ذلك ؟

فقال الفتى :

أن تجمع جنودَكَ خارجَ المدينةِ ، وَتُعْلِنَ فيهِمْ أنى جئتُ خاطِبًا ابْنَتَك لِنَفسِي عَلَى أنْ أُبارِزَ جُنْدَكَ فإن غَلَبْتُهُم أَجَبْتَنِي إلى الخِطْبَةِ وَزَوَّجْتَنِيها ، وإنْ غُلِبْتُ فلاَ حَاجةَ لى عِنْدِك ، فما رأيُك فى هذا ؟

فقالَ الملكُ :

هذَا حسنٌ !

ولـكنهُ كان في دهشةٍ عظيمةٍ مِنْ أنَّ غلاماً سيبارِز جيشاً برُمَّتِهِ ، وقالَ في نفسه :

لا بُدَّ مِنْ تنفيذِ خُطتِهِ ، فإنْ غَلَبَ الجيشَ فُزْتُ بهِ زَوْجاً لابنتي وَقَوِيَ بِهِ ساعِدي ، و إن غَلَبَهُ الجيشُ وقَتَلهُ فقدْ ثأرْتُ لِنَفْسِي إذْ دَخلَ قصْرَ ابْنتي عَلَى غير إذنٍ منِّي .

وجلسَ يتحدَّثُ إلى الفتى ، وَأرْسَلَ في الحالِ إلى قُوَّادهِ أنْ يَجمعوا الجيشَ ويخرجُوا بِهِ إلى الخلاءِ عِندَ الصَّباحِ .

وطاف الفتى بالملك على ألوانٍ من الحديث طريفة وتليدة ، حتى عرفه الملكُ بالذكاء واللباقة وسعة الأُفق ، وأنس منه عظيم فهمه بشئون الحياة . وشملتهم غمرةٌ من هذا الحديث الشهيِّ حتى أخرجهم منها شروق الشمس ، فقال الملك :

ألهتنا لَذَّةُ الحديث عن الراحة بالنومِ ساعة من الليل ، والآن ينتظرنا الجيْش خارج المدينة .

فقال الفتى : هيا بنا إليه ، وما كان سهر ليلة ليعُوقَني عن الوفاء بعهد أبرمتُه .

وهناكَ نادى الملكُ في جيشه :

جاءني هذا الفتى خاطباً ابنتي لنفسه ، وقد زعم أنه أشدُّ منكم بأساً

وأعظم قوة ، وشَرط على نفسه ألا يتزوجَها حتى يبارزكم ويغلبكم ، فإن صح ما زعمه فهنيئاً له زوجتُه ، وإن غلبتموه فقطِّعوا جسَمه ومزِّقوه ، وذلك ما عقدنا العهد بيننا عليه ، ثم التفت إلى الفتى قائلا :

قد سمعتَ ما حدثتُ به جنودي فدونَك وما تريد .

فقال الغلام :

أنصفني أولا من جندك ، فليس من العدل في قليلٍ أو كثير أن يبارز فارسٌ راجلٌ لا يركب جواداً فرساناً على جيادهم ومعهم أسلحتهم ؟

فقال الملك :

هذه الجياد فاذهب إليها ، واختر لنفسك الجواد الذى ترتضيه .

فقال الفتى :

لن أركب إلا جوادى .

فقال الملك :

إركب ما تشاء ، فأين جوادك هذا ؟

فقال الفتى :

على سطح قصر ابنتك الذى كُنا فيه .

فدهِشَ الملك ، وخشي أن يكون قد أصابته نوبة من الجنون ، ولكنه سايَرَه فيما قال ، وأرسل أربعة عبيد لإحضار الجواد المزعوم .

وهناك وجدوا الفرس العاجِيَ ، فحملوه على أيديهم وجاءوا به ، ووضعوه قدام الملك ، فأحدث حسنُ الفرس وإحكامُ صنعه العجب والدهشة في

نفوس الناظرين ، واحتاروا فى أمره ، وما عسى أن يصنع به هذا الغلام ، ولكنهم صبروا وارتقبوا ما عسى أن يكون مما لم يخطر لهم على بال ، وقال الملك :

هذا فرسك فاركبه ونفِّذ ما اتفقنا عليه ، واعلم ان الجُند إن ظفروا بك قتلوك ، فلا تلومَنَّ الآن إلا نفسك ، وإن أردت أن تنقض عهدنا فلا مانع لدىّ ، لأنه عزيز على ملكٍ مثلى أن يضيعَ حياة شاب مثلك ، مُسايرَة لك فيما زعمت .

فقال الفتى :

إنى أعنى ما أقول ، وعالم بما أنا قادم عليه ، فمر جندك أن يبعدوا عن فرسى بمقدار رمية السهم .

فأمرهم الملك أن يبعدُوا بمقدار رمية السهم فابتعدوا ، وهم فى عجبٍ من أمر هذا الفتى ومن مسايرة الملك له فيما يقترح ويطلب .

ركب الفتى فرسهُ وأدار مفتاح الصُّعودِ فطار به فى الجوّ وارتفع ، ثم أبعد فى المسير حتى غاب عن أعينهم ، وتركهم يضربون كفًّا بكفٍّ ؛ ثم أحاط الوزراء والكبراء بالملك ، وقالوا :

هذا ساحرٌ ، والحمدُ لله الذى نجانا منه ومن سحره . فذهب الملكُ إلى ابنته وأخبرها بما جرى ، فكان ذلك لها مفاجأةً أليمةً فزعَت لها وأسِفتْ أسفًا شديدًا . واشتدَّ بها الحُزنُ وتمكّن من نفسها حتى مرِضتْ ولزمت فراشها ، وزهِدتْ فى الطعامِ والشراب ، فشقّ ذلك على أبيها وحزن حُزنًا



ركب الفتى الفرس وأدار مفتاح الصعود فطار به في الجو وارتفع

عظيماً ، وما أفادَها الأطِبَّاء والحكماء ، حتى استَيْأس أبوها وأسلم أمره إلى الله .

(٢)

طار ابنُ الملكِ بعد أن عرف اسم الملك واسم ابنتِهِ ، وأن المدينة مدينةُ صنعاء ؛ واستمرَّ طائرًا حتى حط بفرسِهِ على سطح قصر أبيه ، وتركه هناك ، ونزل ودخل على أبيه فوجده حزيناً كئيباً بفراقِ ابنه هذا الفراقَ الموجع الذى هو أشبه بفقد الأمِّ واحدَها فى حِجْرها ، فلما رآه أبوه سُرِّيَ عنهُ حزنه ، وقام إليه واحتضنه ، ولما جلسا سأله ابنه عن الحكيم الذى صنع هذا الفرس ؛ فقال الملك :

لا كانَ هذا الحكيمُ ولا كان فرسُه ، إنه مسجونٌ منذ فارَقتنا ، ولا أحِبُّ أن يطرُقَ اسمُهُ سمعى ، فقد كان قُدُومُهُ شُؤْماً علَى أبيكَ .

فَطَلَبَ إلى والده أن يأمر بالإفراج عنهُ وإحضاره بين يديه ، فلما حضرَ أكرمهُ وأجزل له العطاء . ولكنَّ الملكَ لم يُزَوِّجْهُ ابنتَهُ الثالثةَ وَفَرِحَ لِأَنَّ ابنَ الملكِ أخْرَجَهُ من سِجنِهِ ، ولكنَّ الغَيْظَ ساوَرَ نفسَهُ لِأنه أدْرَكَ أَنَّ ابنَ الملكِ وقف على سرِّ الفرس ، وعرَفَ كيف يطيرُ بهِ ويهبط ، وكيف ينتقل به إلى حيث يشاء .

وكانَ ابنُ الملك قدقصَّ على أبيه ما جرى له فى مدينة صنعاء ، فقال له : لا تقرَبْ من هذا الفرسِ ولا تركبْهُ أبدًا ، فإنِّى أخْشَى عليك أن

تقعَ من فوقه أوْ يُصيبهُ عطبٌ فيَهْوِي بك من الجوِّ إلى مكانٍ سحيق ، أو ينطلق بك إلى مواطنِ الخطورة ، كتلكَ المرّة التي ما نجّاكَ منها إلاّ بقيّة في أجلك ، ولولا تلك البقيةُ لأهدرَ ملكُ صنعاء دمكَ ، وأراقهُ بسيفِهِ على غيْرِ علمٍ منا ، وكُنتَ نسياً منسيًّا ، وَخلَّفْتَ لِأبيك الألمَ الفادحَ ما دَامَ حيًّا .

وفى الصباح تفقَّد الملك ابنهُ فى القصرِ فلم يعثر عليهِ، فصعد إلى سطحِ القصرِ فلم يجدِ الفرسَ ، فأدْركَ أن ابنهُ بَكّرَ إلى الفرسِ وطار به . فندمَ الملك لأنه تركَ الفرسَ سليماً وتحت يد ابنِهِ ، وعزمَ على أنْ يكسِّرَهُ ويُتلفهُ إنْ رجعَ ابنهُ بِهِ ، حتى يطمئِنَّ قلبهُ و يأمنَ على حياته ، وعادَ إليه حُزنهُ بعد أن فارقهُ سواد ليلتِهِ .

طار ابنُ الملكِ بفرسهِ إلى مدينةِ صنعاء ، وهَبَط على قصر ابنةِ مَلِكها وترك الفرسَ على سطحه ، وجعل يبحثُ عنها مُستخفياً حتى وجدها فى حُجرةٍ بين الجوارى طريحةَ الفراش ، فدَخَل عليها وسلَّمَ ، ونظرتْ إليه فعرفتهُ ، فانتصبت قائمةً فى فرحةٍ وقوةٍ كأن لم يكن بها مرضٌ ، وقالت : كيف طاوَعَكَ قلبُك على فراقى ، وتركتنى أقاسى آلامَ بُعدِكَ وهَجْرِكَ ؟ أما علمتُ أنِّى لا تهنأُ لى حياةٌ إلاَّ فى ظلكَ وفى الزَّواج منكَ ؟

فقالَ مُبتَسِماً :

ما عِندكِ إلا بَعضُ ما فى نفسِى لكِ ، ومن أجل هذا رجعتُ إليكِ ، ولم أطِقْ صبراً على فراقِكِ وقد رأيتِ مَا كان مِن أبيكِ لى ، ولولا

إشفاقي عليكِ ، ومخافتي من حُزْنِكِ عليه لقتلتهُ ، وإنِّي أضَعُ بيْنَ يديْكِ أمْرًا هو خيرٌ لي ولَكِ ، وذلكَ أن أحملكَ مَعي إلى مَدينةِ أبي ، وَهُناكَ نعيشُ زوجيْنِ في ظِلٍّ ظليلٍ من الرخاء والسعادة .

فقالت :

هيَّا بنا الآن ولا تُبْطئْ ، ولبِست ثيابَها ، وَأمسكت بيده ، فصعدَ بِها إلى سطحِ القصرِ وأردفَها خَلفه على فرَسِه ، وأدار مِفتاح الصُّعود ، فطارَ بِهِما إلى مَدينةِ أبيه .

وكان قد تَسَلَّل بعضُ الجواري عَقِبَ قدُومِ الفتى إلى مَلِكِ صنعاء وَأخبرتهُ أن ابنَ الملك قد حضَرَ وهو في حُجرةِ ابنَتِه ، فنهضَ مُسْرِعًا إليها ، فوجد بقيةَ الجواري يبكينَ لفراقِ سيدتِهنَّ ، وأخبرنهُ بما دار من الحديث بين الفتى وابنتَه ، وأنه طار بها إلى مدينة أبيه .

ولما وصل ابنُ الملكِ أراد أن يريها أُبَّهةَ مُلكِ أبيه وقُوَّة سُلطانه ، وكثرةَ جنوده وأعوانهِ ، فهبطَ بِها في بستانٍ من بساتين أبيه حول المدينة وأنزلَها في مقصورة أبيه المُعدَّة له في هذا البستان . ووضعَ الفرَس أمامَها ، ووصَّى جاريةً من جوارِي أبيه أن تحرسَ الفرس حتى يرسل إليها رسولا . وقال لفتاتِهِ ابنة الملك لقدْ أردتُ ألاَّ تدخُلي المدينةِ إلاَّ في حفلٍ جامعٍ وحفاوةٍ بالغــة ، فذلك أليق بكِ وأكرمَ ، ولهذا سأترُكُكِ في مقصورةِ أبي هذه وفي بستانه ، لأذهبَ إليه وأخبره ، لِيخرُجَ إلى استقبالنا في وُزرائِهِ وكبرائه وجنوده .

فقالت :

حَفِظتَ عليّ كَرامتى ، ورفعت قدرى برَأْيك هذا . وأرجو ألا تغيب عنى طويلاً .

وَلما دخل على أبيه ذهبَ عنهُ حزنه وتلقاهُ فرحاً وأجلسه بجانبه ، وَعَتَبَ عليه ارتحاله إلى حيث لا يدرى وعلى غير علم برحيله، ودون إذنٍ منه.

فقال لهُ ابنهُ :

لاَ بأْس عليك يا أبى ، ولا خوفَ علىّ ، فقد ذهبتُ إلى مدينة صنعاء وأحضرتُ معىَ ابنةَ مَلِكها التى قصصتُ عليكَ قصَّتَها ، وقد تَركْتُها فى مَقصورتِك من بُستانِك ، وبوُدّى أن تجمعَ الجموعَ من رِجالك وجُنودِك لاستقبالها ، حتى تدخُلَ المدينة فى حَفلٍ وحفاوةٍ يليقَانِ بقدرها ومنزلتها .

فقالَ أبُوه : حسناً رأيتَ وفعلتَ .

وأمَرَ فى الحالِ أن تلبَسَ المدينةَ أحسنَ زينتها ، وأن يُعَدَّ موكبٌ مَلَكىٌّ يحضُرُهُ الكُبراء والأعيان والقادة والجنودُ ، وأن يُهيَّأَ لها قصرٌ مفروشٌ بفاخرِ الأثاث والرِّياش ، مُزَوَّد بعدَد وفيرٍ من الجوارى .

وَاستأذن ابنُ الملكِ أباهُ أن يسبق الموكبَ إليها فى البُستان ، لينتظرَهُ معها فيه .

لمْ يجدِ ابنُ الملك فتاتَه وفرسَه ، فاغتمَّ وفزِعَ ، وظنَّ أنها ركبت

الفرَسَ وطار بها ، ولـكن هذا الظنّ ما لبث أن انقشعَ وتبدّدَ ، لِأنه لم يعرّفْها سر الفرس ، وحلّ محله ظنّ آخر كادَ يقربُ منزلة اليقين فى نفسه ، فقد ظنّ أن الحـكيمَ جاء إلى البستان واحتال على فتاته حتى أردفها على الفرسِ خلفهُ وطار بها إلى حيث أراد ، لِيثأرَ لنفسهِ من الملك الذى لم يزوِّجْهُ ابنتَهُ ، ولهذا سأل الجوارى عمّنْ حضر إلى البسـتان هذا اليوم ، فقالوا :

لمْ يدخلهُ اليوم إلا الحـكيمُ الذى جاء ليجمعَ بعض الحشائش النافعة .

وقالت الجارية المـكلفة بحراسة الفرس :

لقد جاءنى رسولٌ منك فأخذ الفرس وَسار به إليك . فحزن ابنُ الملكِ ونَدِمَ على تركها حيث لا ينفعُ النَّدم .

(٣)

كان ذلك الحـكيمُ قدْ دخَلَ البسـتانَ هذا اليومَ باحثاً عن بعضِ الحشائشِ النافعةِ لهُ ، واتفقَ أن رأى فرسهُ أمامَ بابِ المَقصُورَة ، وهو يجُولُ فى أنحاء البستان ، فذهبَ إليهِ فرِحاً وتفقَّدَهُ ، فوجدهُ سليمًا لاَعيبَ فيـهِ وأدْركَ أن الفتاةَ التى يُهيِّئُ لهـا الملك موكبًا ملـكيًّا لاستقبالها فى تلك المقصورة ، فدخل عليها ثابِتَ الجنانِ ، تبدُو على وجْههِ وحركاتهِ أمارَاتُ الاطمئنانِ واضحةً قويةً ، وكان قبيحَ المنظرِ ، فقالت لهُ :

مَنْ أنتَ ؟



ودخل الحكيم على الفتاة وهو ثابت الجنان تبدو على وجهه وحركاته أمارات الاطمئنان

فقالَ : أنا رسُولُ ابنِ الملِك إليكِ ، أمرَنى أن أنقلَكِ إلى بُستانٍ قريبٍ من المدينةِ .

فقالت

وأينَ ابنِ الملكِ ؟

فقال :

إنه فى المدينةِ مع أبيهِ يُهيِّئ لِاستقبالكِ والحفاوةِ بكَ موكبًا ملكيًا عظيمًا .

فقالت وهى تنظر إليه فى كراهيةٍ ومَضَض :

ألمْ يجِد ابنُ الملكِ رسولاً غيرك ؟! وكيف وقعَ اختيارهُ عليك ؟!

فقال الحكيمُ وهو يبتسِمُ :

عِندَهُ عَبيدٌ كثيرٌ أحْسَنُ مِنِّى خُلُقًا ، وأجملُ شكلاً ، ولكنَّهُ اختارنى غَيْرَةً منه على سيِّدَتى ، وهو من أجل ذَلك جَديرٌ بِشُكرِكِ وتقْدِيرِك .

فغرَّها قوْلِ الحكيم وَصَدَّقتهُ ، وقالت :

هلْ أحضرْتَ معكَ مطِيَّةً أوْ جَوادًا ؟

فقال : ستركبين الفرسَ الذى جاء بِكُما إلى هذا البستان .

فقالت :

إنِّى جاهِلةٌ أمرَه ، ولا أستطيعُ أن أُحرِّكه .

فقالَ :

سأركبُه وتكونين رِدْفًا لِي ، ولهذا اختارني مِنْ بين عبيدهِ .

فقامت مَعَهُ وركبَ الفرسَ وأرْدفَها خلفَهُ ، وحرَّكَ مفتاحَ الصعُود ، فطَارَ بِهما الفرسُ جائِلاً في طبقاتِ الجوِّ ، ولمَّا طالَ بِها الزَّمنُ خامرَتْها الوساوِسُ والظنُونُ ، فسألتهُ :

أَيْنَ ما أخبرتني منَ الانتقالِ بِي إلى بُسْتانٍ قريبٍ من المدينة كما أمَرَكَ سيِّدُكَ ابنُ الملكِ ؟

فقالَ في استِخْفافٍ وحُرقةٍ :

لا بارَكَ اللهُ في الملكِ وابنِه ، لقدْ فرَرْتُ بكِ مِنْهما ، لِخُبْثِهما ولُؤْمِهما ، وإخْلافِ موْعدِهما ونقْضِ عُهُودِهِما ، والحمدُ للهِ الذي قيَّضَ لِي فرَسِي بَعْدَ أنْ أخذَاهُ منِّي غِيلَةً وغَدْرًا فلا تطمعي في العودَةِ إِلَيْهِما ، وأنا لَكِ خَيْرٌ منهما .

فبكت الجارية وقالت في نفسها :

مَا زِلْتُ بغْيتي من الحياةِ في ظِلاَلِ زَوْجِي ؛ ولا أنا بَقِيتُ بينَ يدَيْ أبِي وأُمِّي ، أتقلَّبُ على فِراشٍ وَثيرٍ من حنانِهما ونِعْمَتِهِما .

وما زالَ الحكيمُ طائرًا حتى هَبطَ بها في مَرْجٍ مُخْضَرِّ الْجنباتِ ، كثيرِ الأشجارِ والأنهار ، بالقرب من مدينةٍ لِمَلِكٍ عظيم .

وكانَ مَلِكُ هذهِ المدينةِ قدْ خرجَ لِلصَّيْدِ في ذلكَ اليوم ، ومرَّ بذلكَ المرْج ، فوجدَ الحكيمَ واقِفًا وبجانبِهِ الفتاةُ والفرَسَ فأمرَ جُندهُ أنْ يُحضِرُوهُ ومن معه بينَ يديه ، وبعدَ لحظاتٍ من أمرِهِ كانَ

الحكيمُ والفتاة والفرسُ أمامه ، فأدهشهُ أن وجدَ الفرقَ شاسعاً بين الفتاة والحكيم ، هذه بارعة الجمالِ ، حَديثةُ العهدِ بالحياة ، وهذا غارقٌ فى قبحِهِ وبشاعةِ منظرِهِ وطول عهدِهِ بالحياة ، فسألَ الفتاةَ :

من يكون هذا الشيخ منك ؟

فسبقها الحكيم بالإجابة وقال :

أنا زوجها وابن عمها .

فقالت الفتاة :

والله إن هذا الشيخ لمحتالٌ كذاب ، وأنا لا أعرفهُ ولا يعرفنى ، ولا هو زوجى ولا أنا ابنةُ عمِّهِ ، ولكنه غررَّ بى وخدعنى وجاء بى إلى هذا المكان حيلة وغدرًا .

فأمرَ الملك عبيده أن يضربوه ويطرحوه فى السجن ، ففعلوا به ما أُمِروا ، وأخذ الملك معه الفتاة والفرس وإن كان لا يعلم من أمر الفرس شيئاً .

(٤)

جُنَّ جُنون ابن الملك لاحتيال الحكيم وسرقته الفتاة والفرس ، وما هدأ روعه ، ولا اطمأنَّت نفسه ، وأصرَّ على أن يسيح فى مناكب الأرض باحثاً عنهما حتى يجدهما أو يموت فى سبيل الحصول عليهما . فأخذ معه ما يحتاج إليه من المال ، وبارح المدينة إلى غير وجهةٍ ، تتقاذفه البلاد والمدن ، ما يعرفُ منها وما لم يعرف ، وما يملكه أبو فتاته منها وما لم يملك ،

فلم يجدهما ولم يسمع عنهما خبرًا . وبينما هو جالسٌ فى خانٍ من خانات مدينةٍ حطَّ بها عصا تجواله ، سمع جماعة من التجار جالسين بالقرب منه يتحدثون ؛ فقال أحدهم :

كنت فى مدينة كذا — وذكر اسمها — فسمعت أهلها يتناقلون الحديث عن حادثةٍ غريبةٍ وقعت فى مدينتهم ، وذلك أن ملكهم خرج للصيد ذات يوم فعثر فى الخلاء على حكيم قبيح المنظر ، وبجواره فتاة ساحرة الجمال، وفرسٌ من الأبنوس أحكَمَ الصانع صنعته ، فأحضرهم بين يديه ، ولما طلب منهم أن يعرفوه بأنفسهم ، ادَّعى الحكيم أنه زوج الفتاة وابن عمِّها ، فأنكرتِ الفتاة ادِّعاءهُ وكذَّبتهُ فى قوله ، وادَّعت أنه لا يعرفِها ولا تعرفُه ، ولكنه خدعها ومكر بها حتى جاء بها إلى هذا المكان ، فأمرَ الملك بضرب الحكيم وحبسه ، وأخذ الفتاة والفرس إلى قصره ، وهذا الملك اسمه كذا — وذكر اسمهُ — فاستراح ابنُ الملك قليلا، وظن أنه مُلاقٍ فتاته ، وبات مرتقبًا شروق الشمس .

وفى الصباح الباكر برح الخان إلى المدينة التى عرف اسمها ، ولم يزل يقطع الفيافى والقفار حتى كان على بابها ، ولما هم بدخولها أمسكه الحرس ليُحضروه أمام ملك المدينة فيسألهُ عن اسمه ومن أىِّ البلاد ، وما سبب مجيئه إلى مدينته ، وعما يحسنه من الصناعات ، وتلك عادتهم فى كل غريب يفدُ إلى مدينتهم ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فأبقوه معهم حتى صباح الغد ، لأنَّه جاءهم فى وقت لا يعرضُ فيه على مَلِكهم أحدٌ من

الغرباء ، وكان لجماله وظهور آثار النعمة عليه أثر فى أنهم أجلسوه معهم ولم يُلقوه فى السجن حتى الصباح ، كما أنهم أشركوه معهم فى طعامهم وشرابهم، وسأله أحدهم .

من أىّ البلاد أيها الفتى ؟

فقال :

من فارس بلاد الأكاسرة .

فقال بعضهم :

ما رأينا كذاباً كهذا الرجل الكِسْرَوِىّ المطروح فى السجن عندنا ، وما وجدنا أبشع منه خلقاً ، وأقبح صورة .

فقال ابن الملك : وكيف عرفتم كذبه ؟

فقالوا :

زعم أنه حكيم ، وأنَّه زوجُ الفتاة التى معه ، وابن عمها ، ولكن الفتاة كذَّبتْهُ وقالت إنه احتال علىّ وخطفنى ، ولو كان حكيماً كما يدّعى لعالج تلك الفتاة المسكينة وداواها من الأمراض التى ألمت بها ، وربما جاءتها تلك الأمرض بسببه ، وقد أصابها جُنونٌ لا يَقرُّ لها معه قرار ، وإن ملكنا يتمنى شفاءها ، لأنه يُحبُّها لفرط جمالها ، وكان مع هذا الرجل فرسٌ من الأبنوس دقيق الصُّنع ، وهو الآن فى خزانة الملك . ولا يدرى أحدٌ منا له فائدةً إلا أنه جميلُ الشكل يُعجب الناظر إليه .

فاطمأن ابنُ الملك ورجا أن يَكون قد وصل إلى بُغيته .

ولما جاء موعد نومهم أغلقوا باب المدينة ، وأدخلوا ابن الملك السجن الذى فيه الحكيم ليقضى فيه ليلته . وفى الصباح أحضروه بين يدى ملِكِهم وقالوا :

جاءنا هذا الغريب فى المساء ، فحجزناه فى السجن حتى جئنا به الآن.

فسأله الملك :

ما اسْمُك ؟ ومِن أىِّ البلاد أنت ؟ وما سببُ مجيئك إلى مدينتنا ؟

فقال ابن الملك :

اسمى بالفارسية حرْجة ، وبلادى فارس ، وصناعتى الطب ، أُداوى المرضى والمجانين ، ولهذا أطوفُ بالبلادِ لأَنفع الناس بطبى ، وأُخفِّفَ عنهم آلامهم ، وأَشْفِيَهم بإذن الله من أمراضهم ، وأَرُدَّ بفَضْلِ الله إلىَ المجانين عُقولهم ، ففرح به الملك وقال :

لقد ساقَكَ الله إلينا فى وقت الحاجة إلى طِبِّكِ وعِلْمِكَ ، وقصَّ عليه أمر الجارية ، ووعده إن أبْرَأها من جُنونها فلَه عنده ما يشاء ويطلب .

فقال ابن الملك :

اقْصُصْ علَىَّ نبأَها غير تارِكٍ منه صغيرة أو كبيرةً ، من يوم أن وجدتها إلى أن مَرِضت بعقلها .

فأخبره عن كل شىءٍ يتعلقُ بها إلى أن أَصابها الْجنونُ .

فقال ابن الملك :

وما فعلت بالفرس الذى كان معها ؟

فقال الملك :

لا يزال محفوظاً عندى كما وجدته .

فقال ابن الملك فى نفسه :

لا بُدَّ من رُؤية الفرس أولاً ، فإن كان سليماً فقد وصلت إلى ما أريد ، و إن كان قد عطب أو بطل عمله دبَّرت حيلة أخرى للوصول إلى ما أبغى.

والتفت إلى الملك قائلاً :

لا بُدَّ من رؤية الفرس أولا و تفقد ، فربما وجدتُ فيه شيئاً يُعين على التَّعجيل بشفاء الفتاة .

فقال الملك : ذلك رأىٌ جميل ؟

وأخذه الملك إلى مكان الفرس ، فجعل ابن الملك يفحصه حتى استيقن من سلامته فوصَّى الملكَ أن يحافظ على الفرس، وقال له :

أريد أن أذهب إلى الجارية لأفحصها ، وأرجو أن يكون شفاؤها بإذن الله عاجلاً .

ومضى به الملكُ إلى مكان الجارية ، فوجدها تهذى و تتخبط ، وما كان بها جُنون ولكنها تصنعت جُنونها لتتخذ منه حماية لنفسها من الملك ، مخافة أن يطمع فيها و يتخذها له زوجة . فجعل ابنُ الملك يتلطف فى حديثها حتى عرفها بنفسه ، فلما عرفته صرخت من فرحتها صرخة عالية ، وسقطت على الأرض كالمغشىّ عليها ، فوضع ابنُ الملك فَمَهُ عَلَى أذنها ،

وأوهم الحاضرين أنه يقرأ ويتلو ليكشف عنها عارض الجنّ ، ولكنه كان يُسرّ إليها ويقول :

اكتُمى عن هذا الملك الجبار أمرى وأمرك ، واصبرى وتجلدى ، وارجعى إلى صوابك ، وسأخبرُ الملك أنى شفيتُك وأبرأتُكِ من جُنونك ، حتى أستكمل الحِيلة التى دبرتها للفرار بك من هذه المدينة .

فأشارت إليه أن :

سمعًا وطاعةً .

ثم خرج إلى الملك وأخبره أنه قد شفاها بإذن الله تعالى ، ففرح وأمرَ أن تذهب إلى الحمام وتلبس أحسن الثياب وأغلاها ومنحها عقدًا من الجواهر ، ثم أقبلت عليه كأنها من الُحورِ العِين فقبّلت يديه ، ودعت له بطول البقاء ، ودوام ملكه عزيزًا قويًا .

وكان سرور الملك من هذا الحكيم عظيما ، وقال له :

لقد كان قدومك رحمة لنا ، فأنت حكيم مبارك ، يحبك الله ويُؤيِّدُكَ بعونه وتوفيقه .

فقال الحكيم :

لا يَتمُّ شفاؤُها حتى أقطع دابر هذا العارض فلا يَعود إليها أبدًا ، وذلك بأن تَأخذ جُندك والفتاة وفرس الأبنوس إلى المكان الذى وجدتهم فيه ، وهنا أُطلق البخور وأتلو ما أتلوه حتى لا يكون للعارض عودة إليها أبدًا .

فنفَّذ الملك ما أراد، وكانوا جميعهم عند المرج الأخضر حيث وحدهم الملك.

فقال الحكيم :

ضع الفتاة والفرس على مكان بعيد من جندك ، وسأطلق البخور وأقوم بتلاوتى حتى أصِلَ إليها ، وهناك أتلو على الفرس من آياتِ السِّحْر والكهانة ثم أركب الفرس والجارية من خلفى ، فإذا فعلت ذلك سمعت من الفرس صهيلا عالياً هو نهاية الشفاء ، ولن ترى الفتاة هذا العارض أبدًا.

فقال الملك :

اصنع ما شِئت ، فما رأينا الخير والشفاء إلا على يديك .

وأمر الملك أن يُنفذ ما أشار به الحكيم ، فوُضعت الفتاة والفرس فى الخلاء بعيدَيْنِ عن الملك وجنده بعدًا عظيما ، وجعل الحكيم يتنقل فى أنحاء هذا المكان ببخوره حتى كان عند الفتاة والفرس ، ثم ركبه وأردفها خلفه ، وأدار مفتاحَ الصُّعود فطار بهما ، وسار إلى مدينته ، أما الملك وجنده فقد لبثوا ينتظرون عودتهما إلى منتصف النهار حتى يئسُوا ، ثم عضُّوا بنواجذ الندم ، ورجعوا بحسرتهم خائبين . وبذلك استطاع ابنُ الملك بحيلته أن يسترد فتاته ويذهب بها إلى مدينته . ففرح بعودتهما أبوه وأمهُ ، وأمر الملك بإقامة الولائم والأفراح فى أنحاء المدينة ابتهاجاً بعودة ابنه ، وأبرم بينهما عقد الزواج، وكسر الفرس حتى يأمن شرَّه، ويَطمئن على ابنه ، وكتب ابنُ الملك رسالة إلى والد زوجتِه أنبأه مصير ابنته وأنه تزوجها ومقيمة معه فى قصر أبيه ، وبعث له رسولا من عبيد أبيه ومعه

كثير من الهدايا ، فكانت هذه الرّسالة بردًا وسلامًا على قلبي أبيها وأمّها، وردّ الرسول بالهدايا الفاخرة من عنده ، ورسالة تُنْبِئُ عن شكره وسروره ، ودامت الصلة بينهما على أحسن حالٍ ، وتولى المُلْكَ بعد موت أبيه ، فعدل بين الناس ، وأكثر من الخيرات والأعمال الصالحة .

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٣٤٩٠
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3243 - 2	ISBN

١ / ٩٠ / ١٨٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ألف ليلة وليلة

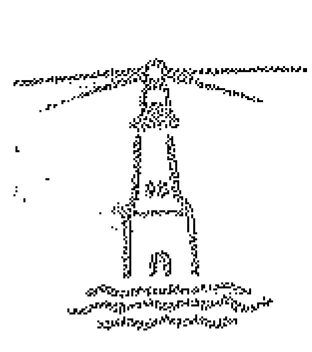
هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهرزاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكاف
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبوالحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف